المنهاج الاشتراكي

على

ضوء الإسلام

بقلم

أحمد عبد الجواد الدومي

الناشر

مؤسسة الخانجي بمصر

المكتب التجاري ببيروت

مكتبة المثنى ببغداد



المنهاج الاشتراكي

على

ضوء الإسلام



بقلم

أحمد عبد الجواد الدومي

الناشر

مؤسسة الخانجي بمصر

المكتب التجاري ببيروت

مكتبة المثنى ببغداد

مطبعة السنة المحمدية
تليفون ٧٩٠١٧

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

ولله الحمد والفضل والمنة .

يرحب الإسلام بالاشتراكية المعتدلة المتدينة كل الترحيب ، ويعانقها أجمل عناق ؛ ويحتضنها أعظم احتضان ! !

إنما يعادى الإسلام الاحتكار والرأسمالية الفاحشة .

ويعادى الإسلام طغيان أصحاب الثراء وتحكمهم ...

ويعادى الإسلام الترف الزائد ، والبذخ الداعر ...

وقرآننا الكريم حمل على المترفين حملة شعواء ؛ ووصمهم وصمات عنيفة فى شتى السور ، وكثير من الآيات ! !

قال سبحانه :

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ، ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »[1] .

« فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين »[2] .

---

(١) سورة الإسراء . (٢) سورة هود .

« وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون »[1] .

« وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال فى سموم وحميم ، وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم ، إنهم كانوا قبل ذلك مترفين »[2] .

فالإسلام يمقت الترف والمترفين ، ويقدس العمل والعاملين ! !

* * *

ولئن أردت أن تقدم اليوم أجل خدمة للإسلام فاعمل لبناء مجتمع اشتراكى متدين سليم ...

فإن الفلسفة المتطرفة تريدها مادية بحتة ... فالإنتاج عندها هو العجلة التى تدور حولها العقائد والآداب والعلوم والفنون !!

أما الإسلام :

فيريدها مادية وروحانية .

مادية تسند الجسم وتقويه ؛ وروحانية تجمل الإنسان وتهذبه وتهديه ! !

ولا بد أن يسيرا فى المجتمع المسلم جنباً إلى جنب ...

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا

---

(١) سورة سبأ . (٢) سورة الواقعة .

وأحسن كما أحسن الله إليك ، ولا تبغ الفساد فى الأرض إن الله لايحب المفسدين »[1] .

* * *

وإذا ضم المجتمع رأسمالية فاحشة ، فليس هذا المجتمع مسلماً ، ولا صالحاً للحياة .

وإذا ضم ماديين لاروح عندهم ، فليس هـذا المجتمع مسلماً ، ولا صالحاً للحياة .

وإذا زعم زاعم أن هناك مجتمعاً مادياً بحتاً قام فى أى بقعة من الأرض ؛ فلن يمكننا معشر الشرقيين أن نهضم هذا المجتمع أو نسايره بحال من الأحوال ...

* * *

وكتابنا هذا يحارب الرأسمالية الاحتكارية ... باسم الإسلام ... وفى الوقت نفسه لا يرضى عن الفلسفة المادية التى تدعو إلى جعل الإنسان آلة ... وتقف من الأديان موقفاً غير سليم ! !

فمن شاء فهم الاشتراكية السليمة فسيجد فى الكتاب مبتغاه .

ومن أراد مجتمعاً مثالياً فاضلا فسيجد فى الكتاب مناه .

* * *

---

(١) سورة القصص .

ونحن الآن ـ والحمد لله ـ نسير فى وطننا العربى الكبير ـ خطوات سليمة سريعة نحو النهضة العمرانية الشاملة ..

ليرفع الفقير رأسه .

وليكسب الفلاح عزته .

ولتسير العروبة على قدميها ، وتثبت وجودها تحت الشمس ! !

وكل ما نأمل ونرجو :

أن لا يرتفع صوت المعدة على صوت الروح .

وأن لا تغطى نغمة الإنتاج على نغمة الدين .

وأن لا تذوب الإنسانية فى حركة المصنع .

وأن لا يضطرب الميزان الخلقى فى المجتمع الجديد .

هذا ما نرجو . والله يهدينا جميعاً إلى سواء السبيل .

أحمد عبد الجواد الدومى

تمهيد

ياشباب الإسلام قد برّح القيد م فهلا انتفضتم من رقود
مالكم والمبادىء الصفر والحمر وقرآنكم منار الوجود
يدفع المسلمين للعلم والإنتاج قبل التسبيح والتحميد
إنما نحن وحدة مزقتها دول الغرب باصطناع الحدود
إن يوماً يلمنا من شتات هو للمسلمين أسعد عيد(1)

* * *

هل يعلم العامل الكادح أنه إذا قرن كدحه ، بيقين يمنحه الصبر ، وإيمان يساعده على تغلب الصعاب ! .

فإنه سيكون حينئذ أحب الناس إلى ربه ، وأقربهم إلى رضوانه ، وأكثرهم فهماً لدينه ! ! .

وهل يعلم العامل الكادح أن رسول الإنسانية صلوات الله وتسليماته عليه قابل رجلاً ورمت يده ، فسأله عن السبب ؟ فقال الرجل : من كثرة العمل ، فما وسع النبي إلا أن قبّلها ، طبع عليها قبلة الرضا والإعجاب والإكبار ، وأعلن :

---

(1) من قصيدة الأستاذ أحمد فرح الفالوجى .

« هذه يد يحبها الله ورسوله » .

وفى رواية :

« هذه يد لا تمسها النار أبداً » .

فإذا ماقضيت النهار أيها الإنسان الكادح ، وأويت إلى فراشك ليلا ، فاملأ عينك بنوم هادىء ، واملأ قلبك بيقين عظيم ، وردد على سمعك ، بل جوارحك كلها هذه الأنشودة الإنسانية العذبة التى قالها نبيك الأكرم :

« من أمسى كالاً من عمل يده ، أمسى مغفوراً له » .

إن بينك و بين السماء ، عزيمة قلب ، وحركة يد ، وتوكلا على الله . . لتضمن بعد ذلك :

حياة سعيدة ، وآخرة سعيدة ، ورضواناً من الله أكبر .

على سطح الأرض خيرات مبسوطة ، وفى باطنها أرزاق مذخورة ؛ عن يمينك وعن شمالك الحب والعنب ، والزيتون ، والنخل ، والحدائق الغناء ، والماء النمير ، وقد وهب الله لك العقل المنتج ، والفكر المدبر ، والساعد العامل .

فلماذا تنام . . . باسم الإسلام ؟ .

وغيرك قد تحرك . . . باسم المادة الجافة ، و باسم الإلحاد العريض ! ! ؟ ؟ .

العمل هو القانون الإلهى الأزلى لعمران هذه الأرض واستخراج كنوزها ، وهو الوسيلة المشروعة لضمان معيشة مريحة ناجحة ، وهو تجاوب مع الفطرة القرآنية :

« هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » ! ! .

وإذا كانت العاطفة الدينية تأمرك بترك كل شىء عند الصلاة ! .

فهذه العاطفة الدينية نفسها تأمرك بأن لا تخمد ولا تكسل بعد الصلاة :

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله »

والخصوبة تحت أناملك ، والثمرة تحت بصرك . . .

فى النيل خصوبة أى خصوبة ، وثمرة أى ثمرة .

وفى الصحراء معادن وثروة أى ثروة . . .

وفيك والحمد لله قوة وحيوية ونشاط ! ! .

إن الدين لا يترك الإنسان وحيداً فى معركة الحياة ، معركة الخبز ، معركة العمل والكفاح .

لأنه دين واقعى يساير طبائع الأمور ، ولا يشذ عن قوانين الحياة !!

ولم نجد ديناً يدافع عن حقوق العمال ويحتضنهم ويرفع أسماءهم فى قائمة الخالدين مثل دين الإسلام .

وهذه الفلسفة العمرية خير تفسير للمنهاج الإسلامى « العمّالى » .

« أقابل الرجل فيعجبنى .

فإذا قيل لا حرفة له ، سقط من نظرى[1] » .

فأى إنسان يريد قطف الثمر ، فليعمل ، وليعمل باسم الإسلام . ولينتظر أن تأتيه الدنيا بأطرافها ، كما جاءت ليوسف من قبل :

« وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض يتبوأ منها حيث يشاء[2] » .

* * *

ومشكلة اليوم التى نريد بسطها :

المسلمون ضعفاء فقراء .

وغير المسلمين أغنياء أقوياء .

فما السر وما السبب ؟ ؟ .

الواضح الذى لا غموض فيه ، أن الدعوات الأخرى ليست غنية ، وأن الإسلام ليس فقيرا ! ! .

فالسر كل السر أن أتباع الدعوات الأخرى كدحوا واجتهدوا فأصبحوا أقوياء ، وأن أتباع الإسلام ارتكنوا والتصقوا بالأرض ، فذلّوا وصاروا ضعفاء ! ! .

ومع فقرنا وضعفنا ، فلن نترك ديننا لغنى الدعوات الهادمة وقوتها .

---

(١) عمر بن الخطاب للطنطاوى .   (٢) سورة يوسف .

بل سنفهم الدين وسنعمل به . وستبقى لنا قوة متدينة ، ودين قوى .

إن الشرق إن هضم كل شىء لايمكنه أن يهضم الإلحاد ، لأنه مهبط الوحى ، ومنبع الديانات الكبرى . . مافى ذلك شك ! ! ولذلك كانت حضاراته أطول بكثير من الحضارات الأخرى .

فالحضارة المصرية عاشت أكثر من أربعة آلاف عام ، والحضارة العربية الإسلامية تطاول الزمن وتغالب أحداثه منذ ألف وأربعمائة عام تقريباً . . .

أما الحضارة اليونانية فلم يجاوز عمرها الألف عاما ، والحضارة الحديثة تلفظ أنفاسها هذه الأيام ! !

وبين حضارة الشرق والحضارات الحديثة آلاف الأميال وبلايينها . . . فهو لايلائمها ، وهى لاتلائمه ! !

إن مبدأ الدعوات الإلحادية :

أن الإنسان خلق للأرض ، أى الإنتاج ، يعيش ليأكل ويأكل فقط .

أما مبدأ الإسلام فهو :

إن الأرض للإنسان ، والإنسان للسماء ، والأرض والإنسان والسماء لله العلى الكبير ! !

فالإنسان أعز من الأرض وأكرم ، ورسالته أرفع شأنا من

« الإنتاج » الذى يسيطر على العقائد والأفكار والعلوم والفنون ، فكل ذلك يجب أن يتصل بالإنتاج ، وإلا فليس له فى عالم الدعوات الهدامة حساب ولا برهان ! !

وبذلك كان العمران عمرانا ماديا بحتا . . فى نظر هذه الفلسفة . . .

أما عمران الإسلام فهو عمران مادى روحانى ، فيه قوة المادية ، وجمال الروحانية ! !

ولو جمعنا عدداً كبيراً من الناس وكلمناهم باسم المادة فقد نجد أفكاراً متجاوبة ، وعقولا مستقبلة ؛ ولكن : لو كلمناهم باسم الدين الخالص ، والعقيدة الراسخة ، فخذ ماشئت من عواطف ملتهبة ، وأفئدة منفعلة ؛ وأكباد حرية بالبذل والتضحية .

ونجاح الأديان فى مخاطبتها للأمم وتأثيرها على أصحابها ، لأنها خاطبت القلوب بإذكاء الأفئدة ، وإنارة البصائر . . والأديان كلها كما يقول الفيلسوف الإنجليزى « هكسلى » فى كتابه « الفلسفة الدائمة » « يجمعها رباط واحد ، وتستمد حياتها ووجودها من نبع واحد ، وتتفق وما تدعو إليه من حب وإيصال ورحمة للإنسان » .

وإنصافاً للحق نعلن أننا لم نجد ديناً وسع الحياة والموت والدنيا والآخرة ، والبناء والعمران ، والأفق الواسع ، والنهضة الشاملة الكاملة ، والحضارة الرحبة العميقة ، غير دين الإسلام ! ولذلك ندعو إليه ونتشبث به ! ومع أن المسلمين كثير وكثير ؛ إلا أنهم إلى حين قريب كانوا كالنمل ، لاحول لهم ولا طول !!

وهذا إحصاء أخير لعدد المسلمين فى أقطار الأرض يثبت « أن عدد المسلمين فى الهند والباكستان يبلغ حوالى ٩٠ مليوناً ، وفى جزر السند الكبرى والصغرى وفى دولة أندونيسيا نيفاً وسبعين مليوناً ، وعددهم فى الصين حسب تقويم « ثوبا » ثلاثون مليوناً ، وجلال نورى بك صاحب كتاب اتحاد المسلمين يقدر العدد فى داخل الحدود الصينية وفى منشوريا وأنام وسيام والهند الصينية وفى الجزر التابعة لانجلترا من أرخبيل ، بنحو ستين مليوناً . ويرتفع الرحالة عبد الرشيد إبراهيم بعدد المسلمين هناك إلى مائة مليون مسلم ؛ يضاف إلى هذه الأعداد ثلاثون مليوناً فى تركستان وبخارى وغيرها من ولايات روسيا ، وخمسة عشر مليوناً فى إيران وبلاد الأفغان ، وثلاثون مليوناً فى بلاد العرب والعراق والشام وفلسطين وشرق الأردن وآسيا الصغرى ؛ وبضعة ملايين فى جزر انجلترا والولايات المتحدة .

أما فى أفريقيا فالتقدير المعتدل لهم يقارب مائة مليون ؛ منهم خمسة وعشرون مليوناً فى مصر والسودان ، وعشرون مليوناً فى طرابلس وتونس والجزائر ومراكش ، وعشرون مليوناً فى الصحراء الغربية والسودان الفرنسى وبحيرة تشاد والشواطىء الغربيــة ، ونحو عشرة ملايين فى زنجبار ومدغشقر والسواحل الشرقية والصومال ، وسائرهم بين الحبشة وأوغندة وكينيا وأفريقيا الجنوبية . فليس من المبالغة أن يقدر عدد

المسلمين بأربعمائة مليون مسلم »[1]

ومع هذه الكثرة الكثيرة ، والعدد العديد ، فهم مبعثرون ما بين أوربا وآسيا ؛ لا تربطهم روابط ، ولا تنتظمهم وحدة ، ولا يجمعهم صف ، ولا يضمهم لواء !

وكان هذا التفكك بالطبع نتيجة حتمية لعدم تفاعل المسلمين مع دينهم ، لا فى بيوتهم ولا فى مجتمعاتهم !

فهل ترضى لهذه الملايين الأربعمائة أن تكتوى بسعير الاستعمار ، وظلمات الإلحاد ؟

فى بصيرتك يا أخى الرد وفى يدك الجواب .

* * *

إن من حولنا اليوم دعوات هدامة تريد أن تغزونا ، ومذاهب مادية متطرفة تريد أن تستولى على أفكارنا .

قال الأستاذ محمد الغزالى :

« إن الحياة البشرية تتحول فى ظلال هذه الفلسفة الجافة إلى إنسان ميكانيكى لايدرى من وجوده إلا مايزحم المعدة من وقود ويثير الغرائز من شهوات ويهيج المطامع من حروب ، ثم تنقطع الصلة بين الإنسانية وبارئها سبحانه . ويتحول الرجال والنساء إلى رقيق للأرض وعبيد للمصنع » .

(١) الإسلام فى القرن العشرين للعقاد .

فهل تناسب هذه الفلسفة المادية عقولنا و بيئتنا ؟

أبسط العقول يقول لا .

وأبسط العقائد يقول لا .

فلماذا قال بعض الشباب نعم .

قالوا نعم ، بعد أن انخدعوا ، إذ جاءتهم هذه الفلسفات فى مناديل من الحرير ، وفى كؤوس من التخدير .

وقالوا نعم ، لأن الدين الإسلامى يحتاج إلى فهم من المسلمين أنفسهم و إلى وعى من المتدينين كذلك .

وقالوا نعم ، لأن الكثير منهم لايدرك فوائده ومزاياه .

وقالوا نعم . لأن العهود الماضية البائدة كان فيها ظلم اجتماعى كثير و إسراف وتقتير وحرمان قاتل للبائس والفقير .

فأما الآن ؛

وفى عهد الثورة ؛

عهد التحرير والتصنيع والتشييد والبناء ؛

فقد قامت نهضة .

وقد حدث وعى .

وقد قلت الفروق .

وقد تحددت الأهداف والغايات .

وإذاً فلا مجال لأن ينخدع الشباب بمـا انخدعوا به وأن يرتموا فى أحضان الفلسفات المادية الطائشة والدعوات الباغية الملحدة .

إن الفطر السليمة والعقول الحـكيمة تجد فى ديننا الغذاء الـكافى والدواء الشافى ، لأنه ليس ديناً وضعياً وإنمـا هو دين إلهى ، وليس رسالة محلية وإنما هو رحمة عامة .

وكل مذهب فيه ثغرة أو ثغرات إلا دين الإسلام ؛

فلقد جاء به رسول الله منقحاً مهذباً مغربلا ؛ فما على طبيعتك إلا أن تستقيم ، وما على نفسك إلا أن تتخلق وما على وجدانك إلا أن يتهذب حتى تلائم الإسلام ويلائمك الإسلام .

إن الـكلمة للدين .

وإن الفصل للحق .

وإن النهاية هى التحرير .

التحرير من الفساد والظلم والإلحاد .

« فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ماينفع النـاس فيمكث فى الأرض » .

« وقد توضع السياسات الظاهرة والخفية . . من دول الاستعمار . لحرب العقيدة الدينية وإقصائها من الميدان .

ميدان الحياة .

ولكنها تتغلب على هذه السياسات حين تتغلب الأمور على غير إرادة الساسة والمقدرين . فالعقيدة الدينية أثبت من برامج الساسة وخططها الظاهرة والخفية ، وهي أثبت من الجغرافيا أو ما يسمونه « السياسة الجغرافية » . ومهما تكن السياسة فالعقيدة أثبت منها . ومهما تكن الدولة فالأمة هي الباقية ! ! .

وإذا بقي للإسلام إيمانه والمؤمنون به على هدى وبصيرة ، فلا خطر عليه من أقوياء اليوم . ولا من أقوياء الغد المجهول»[1] .

* * *

والذي جعلنا نرى بأعيننا الجيش المصري يقف مع الجيش السوري جنباً إلى جنب ، ضد الطغيان الاستعماري ، هو الذي يجعلنا نؤمن بأن جميع المسلمين سيقفون جنباً إلى جنب ضد الطغيان الإلحادي . . . فلئن كان في الطعام حياة الأجسام ، فإن في الدين حياة القلوب ! !

* * *

وقلب الشرق قبل جسمه . وروحه قبل معدته . . .

---

(١) الإسلام في القرن العشرين .

وما دمنا اليوم قد عزمنا العزم الأكيد على تطهير أرض العروبة من المحتل الغاصب ، والمستبد القاهر ؛ وما دمنا قد عبأنا القوى جميعها لذلك في إصرار وتأكيد ؛ فمن الواجب أن نطهر القلوب من الشك والإلحاد ، ونحررها من الذل والخنوع ؛ ومن الواجب كذلك أن نعرض المذاهب الجديدة على ديننا لأنه أقدم منها وأثبت وأخلد ، فما وافقه أخذناه ، وما خالفه نبذناه . وليس من الإنصاف أبداً أن نطرح ديناً حياً في كل زمان وفي كل عقل ، وفي كل قلب ؛ لفلسفات لازالت وليدة التجربة ، وأثراً من آثار الخيال .

« ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز »[1] .

---

(١) سورة الحج .

الإسلام كلمة الله

الإسلام كلمة الله إلى أبناء هذه الأرض . أراده الله سبحانه منذ أن نشأ أبوهم آدم إلى أن يذهب آخر حفيد .

ووقف على هذا المشروع الإلهى عدداً كبيراً من الرسل ، وعددا أكبر من الأنبياء ، وجيشاً مجيشاً من دعاة الإصلاح والهدى والإرشاد ! وجعل فى الإنسان جهاز استقبال كاملا بجميع معداته وأسلا كه ليكون مستعداً لالتقاط الصور والإشارات ، وأحاط هذا الجهاز بأجهزة أخرى وقائية كالعقل الحكيم والفكر السليم .

ذلك لأن الإنسان عالم كامل مهم يتركز عليه بناء البشرية وإسعادها ، وعمران الوجود وصلاحه . والإنسان لاينفصل عن الوجود ، لأن الإسلام ربط بينهما رباطاً محكما يستحيل انفصامه .

فالإسلام دين الوحدة الكبرى فى هذا الكون الكبير ، الوحدة بين جزئياته جميعاً « من الذرة المفردة إلى أرقى طبقات الحياة المركبة ؛ والوحدة بين مفرداته جميعاً ، من الجماد الساكن إلى النبات النامى ، إلى الحيوان المتحرك ، إلى الإنسان الناطق ؛ والوحدة بين نشاطه جميعاً من دورة الأفلاك والكواكب ، إلى جولة الأفكار والأرواح ؛ والوحدة بين اتجاهاته من استجابة الأفلاك للناموس إلى استجابة

الأرواح للمعرفة ؛ والوحدة بين طاقاته جميعاً من جوعة الجسد للضرورات إلى هتاف الروح بالأشواق . ثم الوحدة بين الأحياء فيه جميعاً و بين الأجناس فيه جميعاً و بين الأجيال فيه جميعاً ؛ بين بدئه ومنتهاه ، و بين أرضه وسماه ، و بين آخرته ودنياه ! يبدأ الخطوة الأولى بتوحيد الإله : الذات التي تصدر عنها الحياة ، و إليها وحدها الاتجاه»[1] « قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد . ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد » .

فأنت مسلم ياأخى مادمت متسقاً مع هذه الطبيعة ، مع الوجود ، مع رب الوجود ، مع روح الوجود ، مع أنبياء الإصلاح ، مع الأرواح ، مع أساليب الجهاد والكفاح ، لا تركن إلى الضعة والذلة فتطردك الحياة من ناموسها ، ولا تطغى وتبطش فتقبرك الأقدار فى حفراتها ، « فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى[2] » .

إنك كائن إنسانى ممتاز ، وحياتك هى الحياة الجديرة بأن تعتز بها وتعمل لها وتحرص عليها ؛ لأنها الحياة التى بها عرف الخالق ، وهى استمداد لقدرته وعظمته ، فإذا أراد إنسان أن يسمو بحياته و يرتفع بها وأن ينقب ويفتش ويسخر كل مايريد معرفته من أسرار الأرض والسماء والهواء ، وأن يعتز باستقلاله فى تفكيره وعقله ، ليصل إلى

---

(١) الإسلام والسلام العالمى (٢) سورة النازعات .

ما يلائم حياته الحديثة من نظم ومبادىء استطاع أن يجارى الإسلام فهماً وقانوناً وتطبيقاً .

ولقد أثبت جمال الدين الأفغانى فى رسالته « الرد على الدهريين » أن الدين أكسب عقول البشر ثلاث عقائد ، وأودع نفوسهم ثلاث خصال ؛ كل منها ركن لوجود الأمم ، وعماد لبناء هيئتها الاجتماعية ، وأساس محكم لمدنيتها . وفى كل منها سائق يحث الشعوب والقبائل على التقدم لغايات الكمال والرقى إلى دار السعادة ! ومن كل واحدة وازع قوى يباعد النفوس عن الشر ويزعها عن مقارفة الفساد ويصدها عن مقاربة مايبيدها ويبددها .

العقيدة الأولى : التصديق بأن الإنسان ملك أرضى ، وهو أشرف المخلوقات ، والثانية : يقين كل ذى دين بأن أمته أشرف الأمم ، وكل مخالف له فهو على ضلال وباطل ، والعقيدة الثالثة : جزمه بأن الإنسان إنما ورد هذه الحياة ، الحياة الدنيا لاستحصال كمال يهيئه للعروج إلى عالم أرفع وأوسع من هذا العالم الدنيوى ، والانتقال من دار ضيقة الساحات ، كثيرة المكروهات ، جديرة أن تسمى « بيت الأحزان ، وقرار الآلام » إلى دار فسيحة الساحات ، خالية من المؤلمات ، لاتنقضى سعادتها ولا تنتهى مدتها ! . »

* * *

وطبيعة الإسلام الاعتدال والتوسط دائماً ! ليوائم طبيعة النفوس

وسنة الحياة ، ولغة الحوادث . فقانونه الأخلاقى قائم على مايتفق وسيكلوجية النفوس والحوادث وظروف الزمان والمكان ! وهناك فروق دقيقة هامة بين القانون الأخلاقى السماوى والقانون الوضعى .

قال الأستاذ العقاد :

« والغالب على الأوامر القانونية ، أنها إرادية تكتفى بتحقيق السلامة ولا تذهب إلى الألزم والأسلم إلى شوط بعيد . والغالب على الأوامر الأخلاقية أنها لدنِّية ، تعمل فيها الإرادة شيئاً ، ولكنها لا تعمل كل شىء .

بل يتولى الشعور أهم البواعث فى أعمال الأخلاق . ويشاهد فيها كثيراً نزوع إلى ماوراء السلامة واللزوم ، وتفضيل للأجمل والأمثل من الأمور . فصاحب الوازع الأخلاقى لا يقنع بفروض القانون ، ولا يزال متطلعاً إلى درجة أعلى من درجات القانعين باجتناب العقاب والتزام أدنى الحدود . أما الغالب على الأوامر الدينية وآداب العقيدة فهو الشمول الذى يحيط بالإرادة والشعور والظاهر والباطن ، ولا يسمح لجانب من النفس أن يخلو منه ، ولا يقنع بالسلامة والجمال إلا أن تكون معهما الثقة التى لاتتزعزع فى صميم الحياة . بل فى صميم الوجود .

ومن السهل أن يقال : إن حاسة القانون تتولد فى الإنسان لأنه عضو فى المجتمع ، وأن حاسة الأخلاق تتولد فيه ، لأنه فرد من أفراد النوع الإنسانى كله . ولكن ليس من السهل أن يقال: إن الإنسان مهتم

بمصيره فى الـكون لأنه عضو فى المجتمع ، أو لأنه فرد من أفراد النوع . وإنما يتدين الإنسان لأنه يهتم بمصيره وبمعنى وجوده ، و يطلب قراراً أوسع جداً من علاقاته الإنسانية أو علاقاته بالمجتمع ! ويجب أن يطلب عقيدة تحتويه ولا يكتفى بعقيدة يحتويها و يريدها كما يشاء .

وعلى هذا الشرط ـ شرط الشمول فى العقيدة ـ يكون الإسلام هو العقيدة بين العقائد ، أو هو العقيدة المثلى للإنسان ؛ منفرداً ومجتمعاً وعاملا لروحه وجسده ، وناظراً لدنياه وآخرته ، ومسالماً أو محارباً ، ومعطياً حق نفسه أو معطياً حق حاكمه وحكومته ! فلا يكون مسلماً وهو يطلب الآخرة دون الدنيـا ، ولا يكون مسلماً وهو يطلب الدنيا دون الآخرة ، ولا يكون مسلماً لأنه روح ينكر الجسد ، أو لأنه جسد ينكر الروح ، أو لأنه يصحب إسلامه فى حالة ويدعه فى حالة أخرى رهيناً بوساطة بينه و بين السماء يتولاها فى المعابد سدنة موكلون بالوساطة بين المخلوق والخالق ، و بين العابد والمعبود »[1]

* * *

فعقيدتك يا أخى هى حياتك ، هى ميزانك عند ربك ، هى قيمتك على هـذه الأرض ، هى لغتك بين الناس ، هى معاملتك فى المجتمع ، هى المهاد والمستقر !!

ولعلك تعلم أن نبيك جاهد فى تثبيت العقيـدة جهاداً عنيفاً ؛ بل

(١) الإسلام فى القرن العشرين .

قل معى : إن الثلاثة عشر عاماً التى قضاها فى مكة ، كانت العقيدة من أجل أهدافهـا ؛ ولو ضربنا ثلاثة عشر عاماً فى ثلاثمائة وستين يوماً لأدركنا مقدار هذا الوقت الواسع العريض الذى قضاه الداعية الأعظم فى تثبيت العقيدة المقدسة !!

كان نبينا يدعو ، ومن ورائه القرآن يثبت العقيـدة عن طريق الإقناع العقلى ، والإغراء الوجدانى ، وعن طريق البرهان التاريخى .

ولنقرأ سوياً هذه الآيات لنرى فيها مدى الإقناع العقلى :

« أفمن يخلق كمن لايخلق ، أفلا تذكرون »[1]

« أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون »[2]

« لايملـكون لأنفسهم ضراً ولا نفعا ولا يملـكون موتاً ولاحياة ولا نشورا »[3]

« قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله ، أرونى ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك فى السموات »[4]

« يا أيها النـاس ضرب مثل فاستمعوا له : إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له »[5]

« له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه »[6]

---

(١) سورة النحل (٢) سورة الأعراف (٣) سورة الفرقان

(٤) سورة فاطر (٥) سورة الحج (٦) سورة الرعد .

والقرآن فى سبيل الإقناع العقلى يجيب على شبهات المبطلين للبعث بأقوى حجة فيقول :

« فسيقولون من يعيدنا ؟ قل الذى فطركم أول مرة »[1]

« و يقول الإنسان : أئذا مامتّ لسوف أخرج حياً .

« أولا يذكر الإنسان أنا خلقناه من قبل ولم يك شيئا »[2]

« وضرب لنا مثلا ونسى خلقه ، قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم »[3]

فأما الإغراء الوجدانى ، فقد تجلى بأجلى بيان وأعظم صورة . . . تجلى لك فى الخطابات الإلهيـة ، فى التذكير بالنعم ، فى تعداد الآلاء ، فى استجابة الدعاء !!!

استمع إلى القرآن الـكريم :

« لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم »[4]

« يا أيها الإنسان ماغرك بربك الـكريم الذى خلقك فسواك فعدلك ، فى أى صورة ماشاء ركبك »[5]

« وصوركم فأحسن صوركم ورزقـكم من الطيبات . . . »[6]

« ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد ، والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد »[7].

---

(١) الإسراء (٢) مريم (٣) يس (٤) التين (٥) الانفطار (٦) غافر (٧) ق .

« أمّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض !

« أمّن يهديكم فى ظلمات البر والبحر ومن يرسل الرياح بشراً بين يدى رحمته »[1]

« هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض ، لا إله إلا هو »[2]

«قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أمّن يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ، ومن يدبر الأمر »[3]

« وما بكم من نعمة فمن الله »[4].

« أفرأيتم ماتحرثون ، أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون .

أفرأيتم الماء الذى تشربون ، أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ؟ .

أفرأيتم النار التى تورون،أأنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون»[5]

« والله جعل لكم مما خلق ظلالا وجعل لكم من الجبال أكناناً ، وجعل لكم سرابيل تقيكم الحر ، وسرابيل تقيكم بأسكم ، كذلك يتم نعمته عليكم لعلكم تسلمون »[6] .

---

(١) النمل (٢) فاطر (٣) يونس (٤) النحل (٥) الواقعة (٦) النحل

ولم يقتصر كرمه سبحانه على إفاضة الضروريات ، بل أعطاك من الكماليات ، ماتتم به بهجتك ، وتتنوع به لذتك ، غمرتك نعماؤه ، وأشرق عليك ضياؤه ، وعذب لك ماؤه ، ولطف لك هواؤه، وأنعشتك بدائع أكوانه من شموس وأقمار !!

عجبت لمن قد رأى طرفا من فرط لطفك ربى كيف ينساكا

أى تركيز أبلغ من هذا التركيز للعقيدة فى القلوب المؤمنة !!

ويحدثك القرآن عن التركيز بواسطة البرهان التاريخى :

« ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله وإنهم لكاذبون»[1]

« أم اتخذوا من دونه آلهة ، قل هاتوا برهانكم .

« هذا ذكر من معى وذكر من قبلى »[2]

« أم آتيناهم كتاباً فهم على بينة منه »[3]

« أم أنزلنا عليهم سلطانا فهو يتكلم بما كانوا به يشركون[4] » .

فهذا موقف قرآننا الجليل من العقيدة ! إنه يراها أعظم شىء وأجل نعمة ! وهذا هو ما هدف إليه فى الفيض المتدفق من آياته ، والعبر الساطعة فى سطوره ! !

ويتحدث الدكتور أحمد أمين عن الفرق بين الرأى والعقيدة

---

(١) الصافات (٢) الأنبياء (٣) فاطر .

(٤) سورة الروم .

فيقول : « فرق كبير بين أن ترى الرأى وتعتقده ! فإذا رأيت الرأى فقد أدخلته فى دائرة معلوماتك ، وإذا اعتقدته جرى فى دمك وسرى فى مخ عظامك ، وتغلغل إلى أعماق قلبك !

ذو الرأى فيلسوف يرى الرأى صوابا وقد يكون باطلا ، وقد تقوم الأدلة على عكس ذلك غداً . أما ذو العقيدة فجازم باتّ ، لاشك عنده ولا ظن ؛ عقيدته هى الحق لا محالة ؛ هى الحق اليوم ، وهى الحق غداً ، خرجت عن أن تكون مجالا للدليل وسمت عن معترك الشكوك والظنون .

ذو الرأى فاتر أو بارد ، إن تحقق ما رأى ابتسم ابتسامة هادئة رزينة ؛ وإن لم يتحقق ما رأى فلا بأس . وذو العقيدة حار متحمس ، لا يهدأ إلا إذا حقق عقيدته ، فهو حرج الصدر ، لهيف القلب ، تتناجى فى صدره الهموم . أرق جفنه ، وأطال ليله تفكيره فى عقيدته ، كيف يعمل لها ، ويدعو إليها ، وهو طلق المحيا ، مشرق الجبين ، إذا أدرك غايته ، أو قارب بغيته ! ؟

ذو الرأى سهل أن يتحول ويتحور ، هو عبد الدليل أو عبد المصلحة ، تظهر فى شكل دليل .

أما ذو العقيدة فخير مظهر له ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم : « والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى شمالى على أن أدع هـذا الذى جئت به ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه .. » .

قد يجود الرأى وقد ينفع وقد ينير الظلام وقد يظهر الصواب ؛ ولـكن لا قيمة لذلك كله مالم تدعمه العقيدة . وقل أن تؤتى أمة من نقص فى الرأى ، ولـكن أكثر ما تؤتى من ضعف فى العقيدة !!

بل قد تؤتى من قبل كثرة الآراء أكثر مما تؤتى من قلتها ؟؟

ذو الرأى يخضع للظالم وللقوى ، لأنه يرى أن للظالم والقوى رأياً كرأيه ، ولـكن ذا العقيدة يأبى الضيم ، ويمقت الظلم ، لأنه يؤمن أن مايعتقده من عدل وإباء ، هو الحق ولا حق غيره !

من العقيدة ينبثق نور باطنى يضىء جوانب النفس ، ويبعث فيها القوة والحياة ؛ يستعذب صاحبها العذاب ، ويستصغر العظائم ويستخف بالأهوال . وما المصلحون الصادقون فى كل أمة إلا أصحاب العقائد فيها ...

والعقيدة تقتحم الأخطار ، وتزلزل الجبال ، وتلفت وجه الدهر ، وتغير سير التاريخ ، وتنسف الشك والتردد ، وتبعث الحزم واليقين .

ليس ينقص الشرق لنهوضه رأى ، ولـكن تنقصه العقيدة ، فلو منح الشرق عظماء يعتقدون ما يقولون لتغير وجهه ، وحال حاله ، وأصبح شيئاً آخر . »[1] .

* * *

ومن طبيعة الإسلام البساطة ؛ البساطة فى كل شىء ، البساطة فى

(١) فيض الخاطر ج ١ .

المظهر ، البساطة فى المطعم والمشرب ؛ البساطة فى زينة الحياة الدنيا ، البساطة فى نظرتك للأمور ؛ خذها من أخف أبوابها ؛ إن الحياة ذاتها بسيطة واضحة ، لاغموض فيها ولا إبهام !

انظر إلى جميع ما يواجهك بابتسام هادىء ! إن الابتسام فيه روح وراحة ، وفيه هدوء وطمأنينة !

والبسمة الطيبة ، والبساطة الخالصة ، والتفكير الهادىء القوى كان من أظهر صفات النبى صلى الله عليه وسلم .. هذا كاتب أمريكى يصور النبى صلى الله عليه وسلم ساعة احتضار ابنه إبراهيم فيقول : « كان التسليم لإرادة الله واضحاً فى سلوكه ، بينما كان يعانى أقصى ألوان الحزن ، وكان عزاؤه أنه سيلتقى به ثانية يوماً من الأيام فى جنة الخلد »[1] .

فالبساطة والابتسام يسلمانك إلى وضوح السلوك ، وقوة الأعصاب وعدم التعقيد . ونظرة واحدة إلى معاملة الصادق المصدوق عليه الصلوات والتسليمات إلى أهل مكة بعد أن أظهره الله عليهم ، وإلى عبد الله بن أبى رأس النفاق ، وإلى كثير من الأعداء ، تريك مقدار ما وهبه الله لنبيه من قدرة فائقة ، وضبط نادر ، وحلم يغلب جهل الجاهلين ، ويسع تعنت المتعنتين .

فالمسلم الذى ينتفع بدينه يكون صافى الفطرة ، سليم الطبع ، حسن

---

(١) مستقبل الإسلام .

السريرة . فيه ثبات ، وفيه أناة ، وفيه عمق ، وفيه هدوء ، وما لنا نثور ونصخب ، ورسولنا يملى علينا « من أصبح آمناً فى سر به معافى فى بدنه ، عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها »[1] .

وما أجدرنا أن نذكر قول الشاعر :

سهرت أعين ونامت عيون ... فى أمور تكون أو لا تكون

إن ربا كفاك بالأمس ما كا ... ن سيكفيك فى غدٍ ما يكونُ

* * *

إن البساطة فى مواجهة الأحداث والخطوب تكسبك قوة أقوى من الأحداث والخطوب ، وتجعلك دائماً فى ميزان راجح ، وصاحب يقين حىّ .. واليقين الحى يهتف بك دائماً ، كما هتف بالشاعر من قبلك :

فإن تكن الأيام فينا تبدلت ... ببؤسى ونعمى والحوادث تفعل

فما لينت منا قناة صليبة ... ولا ذللتنا للتى ليس تجمل

* * *

ومن طبيعة الإسلام القناعة . فهو يتجه ابتداء إلى القلب فيغرس فيه العفاف والترفع ، ويكره إليه الجشع والشراهة والتطلع ، و« لعشق المال ضراوة تفتك بالضمائر والأبدان ، وتورث المذلة والهوان . . .

---

(١) الترمذى .

والمال كالفاكهة الجميلة اللون الشهية المذاق . ولكن من الناس من يشبع حتى تقتله التخمة .

ومنهم من يدخر ويجوع ، ومنهم من يصاب بالقلق الدائم ، والصداع المستمر خشية الحرمان ، أو طلباً للمزيد !

وفى هذا المقام يقول ابن الرومى :

إنما الحرص مركب الأشقياء	قرّب الحرص مركباً لشقىٍّ
وعلى المتعبات ذيل العفاء	مرحباً بالكفاف يأتى هنيئاً
نظرت عينه بلا غلواء	حسب ذى إربة ورأى جلى
ض وإحراز مسكة الحوباء	صحة الدين والجوارح والعر

وكثير من الناجحين فى دنياهم اشتروا هذا النجاح بقرحة فى أمعائهم، ولغط فى قلوبهم ، فهل تراهم من الناجحين أم من الخاسرين .

ولقد أثبت أحد الأطباء أن أربعة من كل خمسة مرضى ليس لعلتهم أساس عضوى ألبتة ، بل مرضهم ناشىء عن الخوف والقلق والبغضاء والأثرة المستحكمة وعجز الشخص عن الملاءمة بين نفسه والحياة » .

وبنفسك الشفافة أرجو أن تقرأ بعد هذا كله قول رسولك الأكرم « تفرغوا من هموم الدنيا مااستطعتم فإنه من كانت الدنيا أكبر همه أفشى الله ضيعته ، وجعل فقره بين عينيه ، ومن كانت الآخرة أكبر همه جمع الله له أموره وجعل غناه فى قلبه ، وما أقبل عبد على الله عز وجل بقلبه إلا جعل الله قلوب المؤمنين تفد إليه بالود

والرحمة ، وكان الله إليه بكل خير أسرع »[1] .

وتعاليم الإسلام دائماً تطالب بكفكفة الجهود المجنونة فى معركة الخبز ، وضبط عواطف البشر وراء معركة الحياة »[2] .

وإذا كان من بعد النظر أن تنظر إلى السماء ، وإلى الأفق الرحب ، فإن الإسلام يذكرك بأن تنظر إلى الأرض بين الحين والحين . إن فى هذه النظرة عظة وعبرة وذكرى وتبصرة ؛ لأنك منها نبتّ ، وعليها تحيا ، وإليها تعود ، ومنها تبعث « منها خلقناكم ، وفيها نعيدكم ، ومنها نخرجكم تارة أخرى »[3] . منها الحَبُّ الذى تأكل ، والثمار التى بها تتمتع « فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا ، فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا وفاكهة وأبًّا ، متاعاً لكم ولأنعامكم »[4] . « وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبًّا فمنه يأكلون ؛ وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وماعملته أيديهم ؛ أفلايشكرون ؟ سبحان الذى خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ، ومن أنفسهم ومما لا يعلمون »[5] . « وفى الأرض آيات للموقنين »[6] .

هذه الأرض المملوءة بالخيرات ، الزاخرة بالنعم ، الفياضة بالآيات

---

(١) البيهقى . (٢) جدد حياتك للأستاذ الغزالى .
(٣) سورة طه . (٤) سورة عبس . (٥) سورة يس .
(٦) سورة الذاريات .

لا تستهين بها ، فلو مادت من تحتك ، لـكنت فوقها هباء تذروه الرياح !!

ولـكن ليس معنى هذا أن تـكون أرضىّ التفـكير ، أرضىّ الغريزة ، أرضىّ النفسية ! لا ؛ حدد علاقتك هنا بصراحة وحزم « وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله »[1]. فالهوى الأرضى يمقته الإسـلام مقتاً شديداً . ونقصد بالهوى الأرضى الانحطاط فى المستوى الإنسانى بصفة عامة . يريد الإسلام منك أن تطأ هذا الهوى الأرضى بقدميك ، لتكون من عباد الرحمن « وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما »[2] . ولعل التعبير بحرف الجر « فى الأرض » غير التعبير بالحرف الآخر « على الأرض » . إن التعبير الأول وراءه الضلال « يضلوك » لأنه انغمس فى الطين بغرائزه .

والتعبير بعَلَى يفيد تجاوز المؤمن لغرائزه ، وأن تـكون علاقته بالأرض علاقة قدم لاغير !!

* * *

ومن طبيعة الإسلام التركيز والبناء ، والتعاون والبر ، والسعة والبسطة ، والسمو والرفعة ، والمجد والنزاهة « تركتكم على مثل البيضاء ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها إلا هالك »[3] « فانظر إلى آثار رحمت

(١) سورة الأنعام . (٢) سورة الفرقان . (٣) الترغيب والترهيب .

الله كيف يحيي الأرض بعد موتها »[1] .

وكان كون الله واسعا أمامك ليتسع عقلك فيه ويصول ويجول . فسماء عالية ، وأرض مبسوطة ، وفضاء عريض . وكانت نفسك مجموعة من الأسرار ليعمق تفكيرك ، ويدقق في خفايا الأشياء « وفي أنفسكم أفلا تبصرون »[2] « أوَلم ينظروا في ملكوت السموات والأرض »[3] وكان بنيانك قويا متماسكا محكما لتكون أنت في عالم أفكارك كذلك محكما متماسكا قويا . . سنة الله التي أرادها لعباده ، وفطن لها القليل ، وغاب عنها الكثير . « فالشريعة عدل الله في عباده ، ورحمته بين خلقه ، وظله في أرضه ، وكلمته الدالة عليه وعلى صدق رسله أتم دلالة وأصدقها ! ! »[4] . فحرر عقلك يا أخي ولا تقترب من دينك ، كما يقترب الذباب من الحلوى ، بل تعمق فيه وابحث ، وركز بحوثك . وكن أداة فهم وتفهيم ، وعامل أخذ ورد ما دمت تهدف إلى الحق ، والحق أحق أن يتبع ، فما أخرنا إلا التقليد والجمود . « فتحرير العقل أساس الإيمان المحترم ، والعقيدة المقبولة ، وقل في الناس من يرزق العقل الحر الذي يتحرك ، فلا تسكنه الموروثات الخاطئة ؟ . . فضلال الأجيال الغفيرة جاء من هذا الجمود الذي تتحجر به الألباب ، وتتبلد فيه العواطف وتتحول به الأناسي إلى مجماوات بله ، تنادى فلا تلتفت ولا تكترث ،

---

(١) سورة الروم . (٢) سورة الذاريات . (٣) سورة الأعراف .
(٤) من كلام لابن القيم .

لأنها تضيق بما لم تألف ، وتجحد ما لا تعرف »[1] « ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون »[2] .

وإن مما يلفت النظر فى الإسلام أن صفاته الأساسية والكمالية يتصل بعضها ببعض ، ويبنى بعضها بعضا ؛ حتى إنه لو عطل أحد أركانه لأثر ذلك التعطيل على بقية الأركان .

فهو إذ يحارب الكهنوتية البغيضة ، ويمنع احتكار السلطة الدينية فى هيئة أو جماعة ، يعمل فى الوقت نفسه جاهداً على التقريب بين المخلوقات جمعاء ، ويجعل ذلك صفة من صفاته الذاتية الأصلية .

ولهذا نجد الفروض والأحكام والعبادات والمعاملات جاءت لكمال الإنسان وإصلاحه وتهذيبه ، وجاءت حين جاءت مجملة ليفصلها العقل الإنسانى الحكيم على الثوب الذى يريد وبالصفة التى يشاء . فالإسلام لا يحب الطفرة ، ويميل إلى التدرج فى تشريعه كله .

« من الأمور التى روعيت فى التشريع الإسلامى ، التدرج فى التشريع ؛ وهذا التدرج كان فى زمن التشريع ؛ وكان فى أنواع الأحكام التى شرعت :

فالتدرج الزمنى ظاهر فى أن الأحكام التى شرعها الله ورسوله لم

---

(١) ليس من الإسلام للأستاذ الغزالى . (٢) سورة البقرة .

تشرع دفعة واحدة فى قانون واحد ! ! وإنما شرعت متفرقة فى مدى اثنين وعشرين عاماً وبضعة شهور ، حسبما اقتضاها من الأقضية والحوادث .

وكان لكل حكم تاريخ لصدوره ، وسبب خاص لتشريعه ! ! والحكمة فى هذا التدرج الزمنى أنه ييسر معرفة القانون بالتدريج مادة فادة ، وييسر فهم أحكامه على أكمل وجه ، بالوقوف على الحادثة والظروف التى اقتضت تشريعها ! ! والتدرج فى أنواع ما شرع من الأحكام ظاهر فى أن المسلمين لم يكلفوا فى أول عهدهم بالإسلام بما يشق عليهم فعله أو ما يشق عليهم تركه ، بل سلك بهم سبيل التدرج ، وأخذوا بالرفق حتى تكوّن استعدادهم ، واستأهلوا للتكاليف »[1] .

وتدرج الإسلام شيئاً فشيئاً حتى وصل إلى القمة فى الحرية الفكرية والإرادة العقلية والحياة الاجتماعية والقوانين النظامية والحضارة الإنسانية .

* * *

ومن أجل هذا كله كان الإسلام كلمة الله ، وكان الثورة التحريرية الكبرى التى شملت أعظم انقلاب روحى واقتصادى وأدبى .

وكان الثورة الزاحفة المتحركة التى لا تعرف الجمود ولا تعرف الخمود ولا تعرف التحديد ولا التقييد ، ولا ترضى بالدروشة ، ولا تقنع بلغة الأشبار والأمتار .

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى للأستاذ عبد الوهاب خلاف .

وكان الثورة الحيـة النابضة المنطلقة العميقة ، التى تعلو فى الآفاق ولا تنخفض أبداً .

لقد حطمت طاغوت الشرك بالله . ولقد حطمت طاغوت التعصب الطبقى ، وطاغوت التعصب الدينى تحطيما ليس له مثيل .

و بهذه القوة الجبارة استطاع الإسلام أن يهز وجدان المسـلمين الأولين وأن يستقر فى أعماقهم حتى خلق منهم قرآنا حيا يسـير على الأرض ، ونموذجا من أروع نماذج الإسلام . فلا عجب أن يكون نظاماً شاملا ، ودينا منظما . ومبدأ مسيطراً على أقدار الناس والحياة .

* * *

إن من أخص خصائص الإسلام أنه إذا عمّر قلباً حرم عليه أن يستسلم و يخضع لأى سلطان على وجه الأرض إلا سلطان الواحد القهار الذى يحيي و يميت و يدبر و يقهر . ولا يعمر فؤاداً حتى يلهب مشاعره بالحب والود والعطف ، وحتى يحـدث فيه ثورة على الظلم والبغى والعدوان . . .

إن إسلامنا كلمة شاملة جامعة فيه محاسن المذاهب كلها وهو قبل ذلك و بعد ذلك دين الله وهداه « ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين »[1] .

---

(١) سورة آل عمران .

« وأساس العمل فى الإسلام إخضاع الحياة للعقيدة . . . . فيكون الفقير معدماً و يتعفف ، و يكون الغنى موسراً و يتصدق ، و يكون الشره طامعاً و يمسك ، و يكون القوى قادراً و يحجم .

والإنسانية اليوم فى مثل ليل حوشى مظلم اختلط بعضه فى بعض وليست معانى الإسلام إلا الإشراق الإلٰهى على هذه الكثافة المادية المتراكمة .

و إذا رفع المصباح لم تجد الظلام إلا وراء الحدود التى تنتهى إليها أشعته ـ ومصباح الإسلام لا حدود لأشعته لأنه مترامى الأطراف بعيد الأهداف . ولقد كان المسلم الأول يضرب بالسيف فى سبيل الله فتقع ضربات السيوف على جسمه فتمزقه . فما يحسها إلا كأنها قبل أصدقاء من الملائكة يلقونه و يعانقونه ! ! .

وكان يبتلىٰ فى نفسه وماله ، فلا يشعر فى ذلك أنه المرزأ المبتلى ، يعرف فيه الحزن والانكسار ، بل تظهر فيه الإنسانية المنتصرة ، كما يظهر التاريخ الظافر فى بطله العظيم ، أصيب فى كل موضع من جسمه بجراح ؛ فهى جراح وتشويه وألم ، وهى شهادة النصر . . »[١] .

* * *

---

(١) وحى القلم للرافعى ! ! .

يا سبحان الله .

هل هناك أمة تفهم هذا الإسلام وتعمل به ، ثم لا تكون أقوى أمة على وجه الأرض ؟ .

يا رب .

متى يفيق المسلمون ؟ ومتى يتحد المتفرقون ؟ .

اشتراكية الإسلام

أهم ما امتازت به هذه الاشتراكية « الاعتدال » فى كل شىء ؛ وأنها تربط الاقتصاد ، بالدين ، بالخلق ، بالاجتماع ؛ فكل واحد مرتبط بالآخر لغة وتطبيقاً . فلا يصح للمسلم أن يكون فى اقتصاده بعيداً عن الأخلاق ، ولا فى أخلاقه بعيداً عن إسلامه ، ولا فى إسلامه منفصلا عن أسس الاقتصاد الصحيح .

والنظم الاقتصادية التى يسير عليها العالم اليوم نظم انفصل فيها الاقتصاد عن الدين ، فحدث التضخم المادى فى جانب ، والتضخم الفقرى فى الجانب الآخر ، إن جاز هذا التعبير .

إن أساس الاقتصاد اليوم مبنى على الاستغلال البغيض ، والجشع البشع . أما اقتصاد الإسلام فأول مايهدف إليه التحرر الوجدانى والتحرر العملى فى الحياة ! وليس من الإنصاف أن ننظر إلى المجتمع المسلم اليوم فنجده مأزوماً فى اقتصادياته ، حرجاً فى ظروفه ، ثم نقول ذلك من الإسلام ؛ إنما الإنصاف أن نخضع اقتصادنا لهذه الشريعة السمحة ونجعله يمر بفترة التجريب ؛ ثم نصدر حكما له أو عليه .

إن المدنية الغربية حين فرت من دينها ؛ و إن الشيوعية حين

حكمت هواها ؛ لم يصل أى منهما إلى اقتصاد سليم حتى يومنا هذا .

فأما نحن ـ العالم العربى ـ فإن فى تراثنا الروحى ، وثقافتنا الاجتماعية ما يغنينا عن استبدال نظم شرقية أو غربية ؛ لو اتجهنا إلى ذلك المنبع الأصيل بصدق وإخلاص ! ! .

(أ) إن فى الإسلام اشتراكية إنسانية عامة حين يطالب جميع المسلمين أن يقفوا بين يدى رب واحد ، ويتجهوا إلى قبلة واحدة ، ويؤدوا عملاً واحداً ، ويقرأوا فاتحة واحدة .

(ب) وإن فى الإسلام اشتراكية سياسية ؛ فالحاكم أخو المحكوم ، والمحكوم ناصح للحاكم ، والشورى تربط هذا بذاك رباطاً وثيقاً .

(ج) وإن فى الإسلام اشتراكية دفاعية ، فكل مسلم مطالب بالدفاع عن دينه ، عن وطنه ، عن عرضه ، عن أمته ، عن ماله ، عن نفسه . لا فرق فى ذلك بين إنسان وإنسان !

(د) وإن فى الإسلام اشتراكية ثقافية ، فأنا وأنت يجب علينا أن نتسلح بسلاح العلوم والمعرفة لنجارى الحضارات ، ونساير التقدم .

(هـ) وإن فى الإسلام اشتراكية اقتصادية عن طريق الزكاة دائماً ، وعن طريق مايراه الحاكم فى بعض الأحايين ! !

وهل تجد اشتراكية أحزم ولا أعظم من اشتراكية تحرم أن يشبع قوم ويجوع آخرون ؛ بل لو مات رجل جوعاً ، فعلى أهل الحى الذى يسكن فيه ديته واجباً حتما !!

ولقد ذكر الأستاذ أحمد رضوان فى كتابه « اشتراكية الإسلام » عشرين مبدأ للاشتراكية التى يريدها الإسلام ، جاء فيها :

(١) تهدف اشتراكية الإسلام إلى الإصلاح العام و إلى التعاون بين الناس فى جميع شؤونهم .

(٢) إن الإسلام يكره تكدس الثراء فى جانب ، والحرمان فى جانب .

(٣) مبدأ التأمين الاجتماعى العام لكل عاجز وكل محتاج .

(٤) مبدأ الزكاة « الوقاية الاجتماعية » .

(٥) مبدأ رعاية الأسرة وتقدير مدى حاجتها ، فقد فرض النبى للأعزب حظا من الغنيمة ، وللمتزوج حظين منها .. فالحاجة وحدها مبرر كاف للتملك فى الإسلام ، ولهذا قيمته فى التأمين الاجتماعى .

(٦) مبدأ التكافل العام الذى يجعل كل بلد مسئولا مسئولية مباشرة عمن يهلك بسبب الحاجة إلى طعام وشراب وكساء .

(٧) مبدأ عدم الحجز على الضروريات وفاء للضريبة وعدم استيفائها كذلك بالقوة .

(٨) مبدأ من أين لك هذا ؟ فلا استغلال ولا رشوة ولا احتكار ولا ظلم .

(٩) مبدأ تحريم الربا تحريماً قاطعاً ، و إنظار المدين المعسر إلى أن

يتيسر أمره « وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة »[1] .

(١٠) مبدأ الضريبة المتفاوتة حسب القدرة والعجز .

(١١) مبدأ تحريم احتكار ضروريات النـاس فى جميع الأوقات واعتبار الاحتكار جريمة شنيعة ، يستحق مقترفها العقـاب الرادع ، والعذاب الأليم .

(١٢) مبدأ الحد من غلواء الرأسمالية وجشعها وتعسفها ، والحد من تطرف الشيوعية ، وسلوك الطريق الوسط « والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما »[2] .

(١٣) مبدأ الحض على العمل وإيجاده لـكل متعطل ، واحترام حقوق العمال ـ كما سنذكر ذلك فى الفصول القادمة ـ

(١٤) مبدأ المساواة العملية المعقولة بين جميع أفراد الأمة .

(١٥) مبدأ الحرية للناس جميعاً فى حدود الفضيلة والواجب .

(١٦) مبدأ الإخاء بين الطوائف وتـكافلها وتعاونها .

(١٧) مبدأ النظر إلى العـامل وصاحب العمل نظرة متساوية ، لأنهما مصدران من مصادر نفع المجتمع .

(١٨) مبدأ فرض نفقة للأقارب المحتاجين على ذويهم الأثرياء أو القادرين على الـكسب .

(١) البقرة .   (٢) الفرقان .

(١٩) مبدأ عدم إلغاء الملكية الفردية ، والاعتراف بها فى وضوح وصراحة .

(٢٠) مبدأ الشورى بين الحكام والمحكومين . . .

* * *

إننا بهذه المبادىء لا نجد ديناً مثل دين الإسلام يسع أفراد الإنسانية جميعاً ، ويفتح لهم باعه الطويل ، ويقدم لهم باشتراكيته خير دواء وخير علاج لاقتصادها المضطرب السقيم .

قال جمال الدين الأفغانى :

« أما الاشتراكية فى الإسلام ، فهى خير كافل لجعلها نافعة مفيدة ، لأن الكتاب الكريم ، وهو القرآن ، أشار إليها بأدلة كثيرة ، منها أن المسلم أول مايقرأ من فاتحة الكتاب « الحمد لله رب العالمين » فيعلم أن للخلق رباً واحداً وهو مع سائر الخلق من المربوبين سواء . ويرى ويعلم أن القرآن أتى على ذكر أرباب القوة ورجال الحرب والغزاة ومن يتولى إمرتهم وقيادتهم ، فخاطبهم آمراً ومعلماً ومدافعاً ومبيناً حقوق المستضعفين من الأمة الذين لم يتمكنوا من الاشتراك مع من ذكر ، ليكون لهم من ذلك الجهاد وتلك المساعى نصيب ؛ إذ قال : « واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ، ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »[1] .

(١) سورة الأنفال .

هذه آية باهرة أوجبت على من يسعى مجاهداً ومخاطراً بحياته أن يكون مشتركا نتيجة غزواته وغنائمه، ومن لم يكن مشتركا فعلا . فأعطى أولا لله تعالى نصيباً ، ومرجع ذلك النصيب لعباده ، ثانياً للرسول ثالثاً لذوى القربى ، وهم لا شك من المستضعفين الذين إنما قعدوا عن الاشتراك فى الجهاد والسعى وراء الغنائم لعلل تختلف أشكالها وأنواعها، ولكن الدين لم يجز حرمانهم ، بل جعل لهم نصيباً من مساعى أولئك الأقوياء الأشداء ، الخائضين غمار الموت . . كل ذلك نراه مبنياً على حكمة الاشتراك . وجعل حكم هذه الآية جاريا . وكان الرضاء به شاملا لمجموع المسلمين ، من مجاهد أو قاعد للجهاد لعلة . فبدأ بالدرجة الأولى بعد الله ورسوله بذوى القربى من المجاهدين على درجاتهم ممن ينظر فى حاجات أولاد المجاهدين وعائلاتهم عند تغيبهم ، وعطف على من دونهم فى المرتبة الثانية ممن ليس لهم فى المجاهدين أقرباء فقال : واليتامى ، ثم وسع نطاق الاشتراكية فقال : والمساكين ، ثم رأى أن يأخذ نطاقاً أوسع ، فقال : وابن السبيل ، أى عابره . فتم بهذا الشكل نوع من الاشتراكية لم يكن أوسع منه شكلا ولا أنفع .

. . . . ولو تطلع الإنسان منا اليوم وأشرف على تلك الأرواح الطاهرة ، أرواح الصحابة الأولين ، والاشتراكيين الأصليين ، لرأى من مجالى الاشتراك روحاً وجسداً ماينبهر له عقله ، ويصح اعتقاده . إن عمل الدين وتأثيره فى تلطيف الكثافة الجثمانية لايضارعه مؤثر أو

عامل آخر على البشرية ، ولرجعوا إليه لو كانوا يعقلون !!

إن كل اشتراكية تخالف فى روحها وأساساتها اشتراكية الإسلام ، فلن تكون نتيجتها إلا ملحمة كبرى وسيلا للدماء .

وأكرر القول : «إن اشتراكية الإسلام ، هى عين الحق ، والحق أحق أن يتبع »[1]

وقال شكيب أرسلان[2] :

« فى الشريعة الإسلامية مبادىء اشتراكية عظيمة متينة ، تفترق عن المبادىء الاشتراكية المعروفة فى أوربا ، لأن المبادىء الاشتراكية الإسلامية أوثق وأجدر بأن يلتزم العمل بها المسلمون ، لأنها فى أوربا أوضاع بشرية متفق عليها فيما بينهم ، حال كونها فى الإسلام أوامر إلهية لا محيد للمسلم عن إنفاذها إذا أراد أن يبقى مسلماً » .

* * *

هذه اشتراكية الإسلام البيضاء ـ كما يدعو إليها الإسلام ، وكما تريدها النهضة العربية فى الأمة العربية ـ مجد وبناء ، وسعادة ورخاء ، يقول الأستاذ أحمد محمد رضوان فى كتابه « اشتراكية الإسلام » :

« لقد حدت اشتراكية الإسلام من غلواء الرأسمالية وجشعها وتعسفها ، وحملت أصحابها على أداء ما عليهم من حق معلوم للفقراء

---

(١) اشتراكية الإسلام .

(٢) انظر كتاب « حاضر العالم الإسلامى » .

والمساكين ؛ كما حدث من تطرف الشيوعية واستهتارها بالحرية الفردية التي تعتبر الحافز الوحيد للنشاط البشرى ، الذى قامت على دعائمه حضارات الأمم القديمة والحديثة ! .

لهذا فاشتراكية الإسلام مذهب وسط ، جمع محاسن المذهبين الفردى والاشتراكى ، وتجرد من عيوبهما ومساوئهما .

وبجانب هذه الاشتراكية المادية المحببة جاء الإسلام باشتراكية معنوية لا تقل عنها عظمة وأثراً . وقد نجحت اشتراكية الإسلام المادية فى القضاء على الفقر قضاء مبرماً ، كما نجحت اشتراكية الإسلام فى القضاء على الفوارق الاجتماعية من الناس ، وحلت محلهما المساواة الاجتماعية والإخاء المتين .

حقاً : إن الحياة ليست هى المادة وحدها ولكنها الروح والمادة ؛ ولهذا وفقت اشتراكية الإسلام بين الروح والمادة لتنظيم الشئون الدينية والدنيوية للناس أجمعين ، لتتوافر لهم حياة رغيدة هانئة .

كما وقفت اشتراكية الإسلام موقفاً وسطاً بين المذهب الاشتراكى والمذهب الفردى ، فدعت إلى ترك الحرية الشخصية تعمل ماتشاء مادام عملها لا يضر المجموع ، ودعت الدولة إلى الإشراف على رفاهية الشعب ومنع العبث بحقوقه الأدبية والمادية بأية وسيلة كانت ظاهرة أو خفية ، وضربت بيد من حديد على كل سياسة تنشد التلاعب بالصالح العام ، وقيدت الرأسمالية بقيود جعلتها أداة إصلاح ونفع لجميع طبقات الأمة .

فاشتراكية الإسلام تهدف إلى الانتفاع بجهود الفرد إلى أقصى مايمكن عن طريق إعطائه قسطه كاملاً من الحرية ليقوم بدوره النافع كاملاً فى الحياة ، كما أعطت الدولة كافة الحقوق التى تمكنها من المحافظة على الصالح العام ، والقيام بالمشاريع الكبرى ، من غير أن تصبح حجر عثرة فى طريق حرية الفرد النافعة .

ومبدأ آخر تقرره اشتراكية الإسلام فى الانتفاع بالمال كى لا يحبس فى أيدى فئة خاصة من الناس يتداول بينهم ولا يجده الآخرون « كى لايكون دولة بين الأغنياء منكم » . . . ذلك أن تضخم المال فى جانب وانحساره فى الجانب الآخر مثار مفسدة عظيمة فوق مايثيره من أحقاد وأضغان ! ! فحيثما وجدت ثروة فائضة كانت كالطاقة الحيوية الفائضة فى الجسد لابد لها من تصريف . وليس من المضمون دائماً أن يكون هذا التصريف نظيفاً ومأموناً ، فلا بد أن تأخذ طريقها أحياناً فى صورة ترف مفسد للنفس ، مهلك للجسد ؛ وفى صورة شهوات تقضى تجد متنفسها فى الجانب الآخر المحتاج إلى المال يصل إليه عن طريق بيع العرض والاتجار فيه ، ومن طريق الملق والكذب وفناء الشخصية ، لإرضاء شهوات الذين يملكون المال ، وإرضاء غرورهم و...
وسلم « الخلق عيال
والمضطر يركب الصعب من الأ...
...هم لعياله » .
إلا أن يجد...

الدعارة وسائر مايتصل بها من خمر وميسر . . . وسقوط مروءة وضياع شرف ، سوى أعراض لتضخم الثروة فى جانب وانحسارها عن الجانب الآخر . وعدم التوازن فى المجتمع نتيجة هذا التفاوت . ذلك عدا أحقاد النفوس وتغير القلوب على ذوى الثراء الفاحش من المحرومين الذين لا يجدون ماينفقون ؛ فهم إما أن يحقدوا ، وإما أن تتهاوى نفوسهم وتتهافت وتتضاءل قيمتهم الذاتية فى نظر أنفسهم ، فتهون عليهم كراماتهم أمام سطوة المال ، ومظاهر الثراء ، ويصبحون قطعاً آدمية حقيرة صغيرة لاهمّ لها إلا إرضاء أصحاب الثراء والجاه .

ومن أبرز مميزات اشتراكية الإسلام أنها تحرم على الفرد أن يحصل على المنافع من غير أن يقوم بأداء قسطها من الواجبات ، كما تحرم على أصحاب رءوس الأموال استغلال جهود العمال ، وتدعو إلى توفية العمال أجورهم كاملة غير منقوصة . .

وتهدف اشتراكية الإسلام إلى المساواة العملية ، فتساوى بين أفراد الأمة أمام القانون « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وترفع الأدنى إلى مستوى الأعلى ، بأن تعمل على إغناء الفقراء وخير الأغنياء ، وذلك [illegible] من [illegible] التى تسعى لإفقار الأغنياء بخفض الأعلى إلى الأدنى .
وقيدت الرأسمالية بقيود جعلتها أداة إصلاح ونفع بجميع [illegible] فى أعلى المجتمع :

وطاردت البؤس والشقاء فى أسفله ، فيكون مستوى المعيشة متناسقاً متقارباً . واتخذت لذلك وسيلتين :

(١) وسيلة الضمير الإسلامى المرهف وهى أقوى الوسائل الموصلة إلى الإصلاح الشامل .

(٢) وسيلة القانون الحازم ، فإن الله يزع بالسلطان مالا يزع بالقرآن .

وإذا كانت الحكمة الاقتصادية تقول : « دعنا نعمل . . دعنا نسير » فلسان حال الاشتراكية الإسلامية يقول : « أيها الفرد الصالح : عش فى سعادة وهناءة ، ودع أخاك الإنسان يعش فى سعادة وهناءة أيضاً .

فاشتراكية الإسلام والحالة هذه لاتقوم على أساس من حرب رأس المال ونضال الطوائف «الطبقات» . وإنما تقوم على أساس خلقى سام يكفل إخاء الطوائف وتكافلها وتعاونها على البر والتقوى .

وفى كنف الاشتراكية الإسلامية وحمايتها عاش النصارى واليهود المسالمون عيشة هنيئة متمتعين بمنتهى مايتصور من الحرية والعدالة الاجتماعية والتسامح الدينى عملا بقوله تعالى : « لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين » . وقول النبى صلى الله عليه وسلم « الخلق عيال الله ، وأحبهم إليه أنفعهم لعياله » .

وكان الرسول الأكرم مثالاً للتسامح الدينى ، فعامل اليهود والنصارى ، وأكل معهم ، وسكن بجوارهم ؛ وكان يعود مرضاهم ، ويعطف على ضعفائهم ، وكان يقول : « من آذى ذمياً فقد آذانى » ..

* * *

وبهذه الاشتراكية المرنة المعتدلة المتدينة ، كان ديننا دائماً زاحفاً ومتحركاً . زاحفاً بحيويته ، متحركاً بطبيعته .. زاحفاً نحو العلا والمجد ، متحركاً نحو النهضة والبناء والعمران ! ولذلك يخاف الاستعمار من الإسلام ؛ وتحذر الشيوعية الإسلام . .

إن الكتّاب الذين نبتوا فى تربة الاستعمار وارتووا من مائه لم يعجبهم سلوكه المتعطش إلى الدم والظلم والبغى . ولم تعجبهم حياته التى يحياها على السلب والنهب والانغماس فى الثروات الأرضية إلى درجة لا نظير لهـا فى أى عالم يشعر بإنسانيته . فابتدأ كثير من أدباء الغرب يوحدون ، وابتدأ كثير من علماء الغرب يفيقون ويستمعون إلى هذه الحكمة : « كن كما شاء القدر لك أن تكون ، ولكن لاتنس أن لك ديناً تفزع إليه ، وعقيدة تحرص عليها ، وواجباً نحو الله تؤديه ، فإن هذا هو مصدر القوة والأمل فى الحياة » .

وكذلك كثير من الناس فى المجتمع الشيوعى أخذ يحنّ إلى الدين ، ويتطلع إلى مافيه من سمو وروحانية ، ويقبل على مافى شعائره من حنان

وجمال ورحمة وتعاون !! وأخذوا ينفرون من جفاف المادة وخشونتها ، ويشتاقون إلى لغة الحياة وبهجتها . .

والدعوة إلى الإله والعقيدة والقوة والأمل والحياة ؛ هي دعوة الإسلام ؛ ولهذا خلد وبقي شامخ الأركان ، وانحلت الفلسفات الأخرى وكادت توضع في عالم النسيان ، إن كان للنسيان عالم يوضع فيه البالى من الأشياء . .

انحلت هذه الفلسفات ؛ لأنها انفصلت عن الدين ؛ وجعلت هدفها الأوحد التوسع في الرفاهية المادية ، وتنمية الغريزة الجنسية . . انحلت وبقي الإسلام ، لأن ثورته لاتعرف الجمود ولا الخمود ، ولا تعرف الجبن ولا الضعف ، ولا ترضى بالتأقلم ، ولا تقنع بالانتصار الهزيل . . . ثورة مؤمنة ، تضع قدميها فوق الأرض ، وترنو بنظرها إلى السماء ، إلى الله الواحد القهار الذي أمات وأحيا ، وأطعم وسقى ، وقدر فهدى . ثورة فيها عمق الجذور ، وصلابة الصخور ، وفيها الانطلاق ، فهي ترتفع أبداً ، ولا تموت أبداً .

وبقي الإسلام ، لأنه الدين الخالد ، الجامع المانع ، الواضح البسيط ، الذي فلسف الحياة فلسفة هادئة ، ودعا إلى تطبيق نظام معين صالح لكل زمن وكل بيئة وكل مجتمع ، لو عقل الجاحدون ، وتنازل عن غيهم المستهترون !! .

ولذلك كله تعادى الفلسفة الماركسية الإسلام وتحذره حذراً شديداً . يقول الأستاذ العقاد : « الشيوعية إن عادت جميع الأديان فإنها تتميز بمعاداة الدين الإسلامى بصفة خاصة ؛ لأنها تجد فيه نظاماً اجتماعياً فيه حل لكل مشكلة من مشكلاتها ! ! لقد أودع الإسلام السكون من نظم التوفيق مايلائم الزمن بعد الزمن ، والبيئة بعد البيئة . وجاء القرن العشرون ولم تفارقه مرونته التى تصلح للحياة العصرية ولا تستعصى مع الزمن على التجديد . وحيوية الإسلام أتعبت خصومه فى حرب الاستعمار ، وحرب الإلحاد والإنكار . . . . وأرخص ماتكون دعاية الماركسيين إذا آنسوا العجز عن إقناع خصومهم ، ومن هذا القبيل . أنهم يدعون أن الإسلام قد مضى عليه مدة طويلة ، فلا داعى للأخذ به الآن ؛ كأنهم يريدون الأديان تتغير كل صباح ومساء . وإن هذا المأخذ هزيل لا يأتى به إلا هزيل كذلك . إن الإسلام جاء حلالا للمشكلات ؛ جاء فوجد رقاً فسنّ عتقاً وحبب فيه . وجاء فوجد همجية فى تعدد الزوجات من غير قيد ولا شرط . فقيد للتعدد قيوداً ، وشرط له شروطاً ليقر فيه منافعه ، ويمنع منه همجيته . . ولقد ارتفع بالإنسان الرقيق حتى أنه استحب للسيد أن يقول عن رقيقه يا فتاى ، بدلا من أن يقول : يا عبدى . وبعد أربعين سنة على الفلسفة الماركسية يحق للناقد المسلم أن يبتسم وهو يرى فى كل يوم ضربة .

من ضربات الفطرة ترتد بالوبال على كل من يحاربونها . وستمضى أربعون سنة مرة أخرى بعد هذه السنين الأربعين التى مضت على هذه الشريعة الماركسية فى موضع التنفيذ ، وسيبتعد العالم مرة أخرى عن هذه الدعوة كلما خرجت من عالم النبوءات والنظريات إلى عالم الواقع والمحسوسات ! ! فما من نظام سيكون أبعد غداً من النظام الماركسى عن حقائق الأمور ! ! ولئن أخذوا على الإسلام أنه لا يتمشى مع المعاملات العصرية وأنه حرم الربا ، فسوف نرى انهيار المجتمعات التى تبيح ماحرمه الإسلام وإن بلغت اليوم شأواً كبيراً . .

إن المجتمع الإسلامى ، هو هذا المجتمع الإنسانى المتجدد الذى يحيا على سنة التقدم ، ومبادئه ستنتشر ولن تنطوى فى مدى أيام أو أعوام .

إن المجتمع الإسلامى لا يهدم شيئاً من كيان المجتمع الأصيل ، لأن المفهوم من سير الهداية الإلهية ـ كما يسردها القرآن الكريم ـ أن حياة النوع الإنسانى تاريخ متصل يتمم بعضه بعضاً ، وينتهى إلى التعارف بين الشعوب والقبائل . ولهذا يحرص الإسلام على الكيان الاجتماعى فى الشخصية الفردية وفى الأسرة وفى الإيمان بوحدة النوع . وأبرز عيوب الشيوعية أنها تهدم كيان الشخصية ، وكيان الأسرة ، وكيان النوع الإنسانى ـ وبذلك كانت لا تلائمنا من قريب أو من بعيد ـ وإن زينها المزينون ، وأمعنوا فى الحيلة « والتزويق » .

إن الدين الإسلامى خلدته مرونته وسماويته ، ونحن لا ننظر إليه على أنه قارورة دواء للعلاج ، ثم نستغنى عنهـا ! لا . . إنه نظام صحة دائم يؤتى فوائده على مدى أعمار المتدينين إلى ألوف السنين ! ولـكل قائل كلمته فى مدى الزمان الذى يتطلبه لإصـلاح شئون الأمم ، إلا الشيوعية ، فلا سند لهم من إله أو نبى أو رسول ، إلا أن يكون كارل ماركس أو لنين أو ستالين ! ! » .

* * *

وفى هذه الأيام يلاقى الإســلام من دول الاستعمار ، لا أقول منافسة ، وإنمـا أقول : يلاقى تحطيما جباراً من معاول جبارة ، وأيد قهارة ، وأفهام غواصة ! فهل انهدم ؟ ؟ لا ثم لا ! ! .

قد يكون الاستعمار نجح فى جعل الإسلام ديناً كهنوتياً مسلوب الإرادة ، بعيداً عن الـكفاح الإيجابى فى المجتمعات المسلمة .

قد يكون نجح فى هذا . . وقد يكون نجح فى جعل القرآن نشيد الجنائز وأداة من أدوات الارتزاق الرخيص المبتذل .

وقد يكون نجح فى إيجاد الفرقة الشاسعة بين الأمم العربية أو بين الأمم المسلمة .

قد يكون نجح فى هذا ، ولـكن الشعور اليوم بالنهضة ، والشعور بالعزة والسيادة فى الشعوب العربية ، والشعوب الإســلامية ، لطم

الاستعمار على خديه لطمة عنيفة هو منها مذهول ، لايدرى كيف يعمل أو كيف يقول .

وسيحتفظ الإسلام بمركزه أمام الرأسمالية الاستعمارية ، وأمام الفلسفة الماركسية الإلحادية . . لن يطغى عليه شيء من ذلك أبداً . . وسيبقى باشتراكيته واعتداله ونهضته وبأسه محمياً من كل غاصب ، بعيداً عن أى تأثير ! ! .

سيد الاشتراكيين

محمد رســـــول الله

قال شوقي :

داء الجماعة من أرسطاليس لم	يوصف له حتى أتيت دواء
فرسمت بعــدك للعباد حكومة	لا ســـوقة فيهـا ولا أمراء
الله فوق الخلق فيهـا وحـده	والنـاس تحت لوائهـا أكفاء
والدين يسر والخـــلافة بيعة	والأمر شورى والحقوق قضـاء
الاشتراكيون أنت إمامهم	لولا دعاوى القوم والغـــلواء
داويت متئداً وداووا طفرة	وأخف من بعض الدواء الداء
الحرب فى حق لديك شريعـة	ومن السـموم الناقعـات دواء
والبر عنـــدك ذمة وفريضة	لا منـــة ممنـونة وجبـاء
جاءت فوحـدت الزكاة سبيله	حتى التقى الكرماء والبخلاء
أنصفت أهل الفقر من أهل الغنى	فالـكل فى حق الحياة سـواء
فلو ان إنساناً تخـــــير ملة	ما اختار إلا دينـــك الفقراء

***

وصدق شوقي ؛ فقد كان رســول الله سيد الاشتراكيين فى القول والعمل . وها هي ذى باقاته الوردية منشورة بين يديك بعد أن اقتطفناها

من الكتب الصحاح : « من فرّج عن مؤمن كربة من كربات الدنيا فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة ، ومن كسا مسلماً ثوباً على عرى كساه الله من خضر الجنة ، ومن أطعم مسلماً على جوع أطعمه الله من ثمار الجنة ، ومن سقى مسلماً على ظمأ سقاه اللهمن الرحيق المختوم »

« إن الأشعريين كانوا إذا أرملوا فى غزو أو قل من أيديهم الطعام جمعوا ماعندهم فى ثوب واحد ثم اقتسموه فيما بينهم ؛ فهم منى وأنا منهم » .

« أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن ترك دَيناً فعلىّ ومن ترك مالا فلورثته » .

* * *

« كان صلى الله عليه وسلم يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة أبداً ، أسخى من الغمائم المثقلة ، وأجرى بالخير من الريح المرسلة » .

« وكان صلى الله عليه وسلم يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويأكل مع خادمه ، ويخدم أهله . جمع الحطب لأصحابه فى غزوة وقال لهم : علمت أنكم تكفوننى ، ولكن أكره أن أتميز عليكم » .

« ووفد عليه مال من البحرين وكان كثيراً ، فأمر أن يُنثر ، فما رأى أحداً إلا أعطاه ، وما هدأ باله حتى قضى عليه » .

« كان عيشه ظليفاً ، ومأكله خفيفاً ، وحشو فراشه « ليفاً » .

يبيت فى بعض الأيام طاويا ، ويصبح غالباً خاويا ؛ ما أكل قط على خوان ، ولا شبع من خبز شعير يومين متتاليين .. وكان يردف خلفه خادمه ، وأحيانا يردف خلفه وقدامه وهو وسط » .

* * *

وبهذا كله كان رسولنا العظيم بقوله وعمله خير رسول فهم الحياة ومقتضياتها ، والزمن وتطوراته . فأمر وبنى ، وشيد وعمّر ، وكان مثلاً عالياً حياً فى أن يشارك الأعلى من هو أقل منه ، والغنى من هو أفقر منه ؛ ويجتمع الاثنان معاً على بساط الرحمة والتعاون ، والحب والإخاء !.

إن ما اقتطفناه ذرة من طاقة ، وزهرة من حديقة ونقطة من بحر ؛ مما كان عليه النبى الكريم ، والرسول العظيم .

فما أسعد أمة تقتفى آثاره ، وإنسانا يفهم أعماله . . . وقلوبا تعمّر بهذا الاتجاه الصافى السليم !!.

« يابن آدم : إنك إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى » .

« وروى سيدنا جرير قال : كنا فى صدر النهار عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فجاءه قوم عراة مجتابى النمّار ــ مشقوق الملابس ــ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، . . ثم خطب فقال :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالاً كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ؛ إن الله كان عليكم رقيباً »[1] .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ماقدمت لغد »[2] .

« ليتصدق رجل من ديناره ، من درهمه ، من ثوبه ، من صاع بره ، من صاع تمره ، حتى قال : ولو بشق تمرة » فجاءه رجل من الأنصار بصرة عجزت يده عن حملها ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب . . حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهّبة » . ووزع المال على الفقراء ! ! .

« السخى قريب من الله ، قريب من الجنة ، قريب من الناس ، بعيد عن النــار ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الجنة ، بعيد من الناس ، قريب من النار » .

وليس ببعيد عن الأذهان هذه الحادثة الخالدة ، إذ جاءه الأعرابى لجذبه وقال : اعطنى من مال الله الذى عندك ، لا من مالك ولا من مال أبيك ! فلم ينكر النبى عليه قوله هذا ، بل أيده وقال له نعم : المال ليس مالى ولا مال أبى . . . وإنما أطالبك بالقصاص . . . فقال الأعرابى : إنك لا تجزى بالسيئة السيئة ولكن تعفو وتصفح ! ! وأخذ ما أخذ

---

(١) سورة النساء . (٢) سورة الحشر .

من المال . وكم شارك صلى الله عليه وسلم أصحابه فى أعمالهم ، فقد شاركهم فى استقبال وفد النجاشى ، وكان يشرف على إكرامهم بنفسه ويقول : إنهم أكرموا أصحابنا ، وأنا أحب أن أكافئهم .

خلق فاضل ، وسجايا خالدة ، وعظمة طبيعية ، وخلال محمدية ! !

وكان إذا أعطى يُتبع عطاءه بالدعابة اللطيفة ، أو بالقول الحسن ، أو بالنصيحة الفاضلة .

طلب منه أعرابى يوماً مالا فأعطاه ، ثم سأله : هل أحسنت إليك ؟ فأجاب الأعرابى : لا أحسنت ولا أجملت . . ولم يتأثر رسولنا الأكرم بهذا الرد لا من قريب ولا من بعيد ؛ فأعطاه وأعطاه حتى رضى الأعرابى وقال له : جزاك الله عن أهل وعشيرة خيراً .

وهذا يشعرنا أن الإنسان لا يصح أن يعتقد أنه قد ملك أى إنسان بإعطائه مالا ، أو ببذله له منفعة ! هذه حقوق المحتاجين على المالكين ، يقدمونها لهم فى تواضع وسخاء ! وفظاظة الأعرابى هذه كانت كفيلة بأن يمنع النبى عطاءه ، لولا أنه جبل على العفو والسماحة والإحسان ! ! . وكم كان عطاؤه عظيما ؛ فلقد كان يعطى عطاء من لا يخشى الفقر أبداً . وإذا لم يكن معه قال لمن يسأله : خذ ما تشاء وأنا أسدد عنك ! .

* * *

ولقد أثرت هذه التعاليم المحمدية خير تأثير فى صحابته ، حتى إن

رجلاً رثّ الهيئة دخل المسجد فأعطاه النبي ثوبين . . ثم دعا النبي إلى الصدقة ، فما وسع الرجل الفقير إلا أن تبرع بأحد الثوبين .

ودعوة النبي إلى الرحمة بالفقراء ، والبر بالمساكين . أجل من أن تحصى . . . قال صلى الله عليه وسلم :

« طوبى لمن تواضع فى غير منقصة ، وذل فى نفسه من غير مسألة ، وأنفق مالاً جمعه فى غير معصية ، ورحم أهل الذلة والمسكنة ، وخالط أهل الفقه والحكمة » .

ذلك كله فيض من دعوة النبي إلى مجتمع فيه تعاون ، وفيه بر ، وفيه رحمة ، وفيه إخاء . وهذه هى عناصر الاشتراكية التى جاء بها سيد الاشتراكيين صلى الله عليه وسلم .

بنـــــاة الاشتراكية

فى

فجر الإسلام وضحاه

(١)

أبو بكر الصديق

جاء فى الرياض النضرة أن رزق أبى بكر الذى فرض له بعد الخلافة ـ خمسون ومائتا دينار فى السنة وشاة يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها . فلم يكن يكفيه ذلك ولا عياله . . وكان قد ألقى كل دينار ودرهم عنده فى بيت مال المسلمين . فخرج إلى البقيع ـ فتصافق ـ أى باع واشترى ـ فجاء عمر رضى الله عنه ، فإذا هو بنسوة جلوس ، فقال : ماشأنكن ؟ قلن : نريد خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانطلق يطلبه ، فوجده فى السوق ، فأخذ بيده . فقال : تعال هٰهنا ، فقال : لاحاجة لى فى إمارتكم ، رزقتمونى مالا يكفينى ولا عيالى ، فقال عمر : إنا نزيدك ! قال أبو بكر : ثلاثمائة دينار والشاة كلها . قال عمر : أما هذا فلا ! فجاء على رضى الله عنه وهما على حاله تلك ! قال

أبو بكر : أنتما رجلان من المهاجرين ، لا أدرى : هل يرضى بها بقية المهاجرين أم لا ! ! وانطلق أبو بكر رضى الله عنه وصعد المنبر واجتمع عليه الناس ، فقال : أيها الناس : إن رزقى كان خمسين ومائتى دينار وشاة يؤخذ منها بطنها ورأسها وأكارعها ، وإن عمر وعلياً كملا لى ثلاثمائة دينار والشاة ، أفرضيتم ؟ قال المهاجرون : اللهم نعم ؛ قد رضينا ! فقال أعرابى من جانب المسجد : لا والله مارضينا ، فأين حق أهل البادية ؟ قال أبو بكر : إذا رضى المهاجرون شيئاً فإنما أنتم تبع » .

« وكانت له قطعة غنم تروح عليه ، وربما خرج بنفسه فرعاها وربما كُفِيَهَا فَرُعِيَتْ له . وكان يحلب للحىّ أغنامهم . فلما بويع له بالخلافة ، قالت جارية من الحى : الآن لا يحلب لنا منايح ، أى أغنام دارنا ! فسمعها أبو بكر فقال : بلى لعمرى : لأحلبنها لكم . وإنى لأرجو أن لا يغيرنى مادخلت فيه ــ أى الخلافة ــ عن خلق كنت عليه »[1] .

ويعلق الأستاذ على الطنطاوى على هذه الاشتراكية العملية فيقول « أبو بكر العظيم الذى غلب بعزيمته الصادقة ، وثباته العجيب الجزيرة العربية ، وأخضعها لدين الله ، ثم بعث بها فقاتلت تحت ألويته الدولتين الكبيرتين على وجه الأرض وتغلبت عليهما . أبو بكر يحلب لجوارى الحىّ أغنامهن ويقول: أرجو أن لا يغيرنى مادخلت فيه وليس الذى دخل

(١) تهذيب تاريخ ابن عساكر .

فيه بالأمر الهين ؛ بل هو خلافة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيادة الأمة وقيادة الجيوش التي ذهبت لتقلع من الأرض الجبروت الفارسي والعظمة الرومانية ، وتنشيء مكانها صرح العدل والعلم والحضارة ؛ ثم يرجو أن لايغيره هذا كله ولا يمنعه من حلب أغنام الحي . هذه عظمة أبي بكر ؛ وهذه لعمري هي العظمة ، قوة على الأقوياء الجبارين حتى يصرعهم ويلقي برءوسهم على قدميه ، وتواضع للفقراء والمساكين حتى يطيّب قلوبهم ، ويهون عليهم مصابهم . . ولم يكن أبو بكر متكبراً ؛ لأن الكبر عظمة النفوس الصغيرة ، ولأنه العجز والخوف والشر ؛ فهو العجز ، لأن صاحبه لو استطاع أن يكون كبيراً ، لما كان متكبراً ؛ وهو الخوف لأن صاحبه لايجرؤ أن يراه الناس كما هو ، فيستتر وراء حجاب من الكبر يخفي نقصه وصَغاره ، وهو الشر ، لأن صاحبه لايقدر أن يكون خيراً يجله الناس لخيره ، فيكون شريراً يخشاه الناس لشره وضرره. أما أبو بكر فكان بعيدا عن هذا كله ؛ ولم يكن في تواضعه ضعيفا فما للضعف سبيل إلى نفس أبي بكر وهو أقرب الناس إلى معدن النبوة ومنزلة الوحي ، و بريد السماء . . . (١)

« وروى ابن سعد أن أبا بكر رضي الله عنه كان له بيت مال بالسنح معروف ليس يحرسه أحد ! ! . . وكان يعطي مافيه حتى لا يبقى فيه شيئا .

---

(١) أبو بكر للطنطاوي .

فلما تحول إلى المدينة حوّله معه ، فجعله فى الدار التى كان فيها . وقدم عليه مال من معدن من معادن جهينة ، فكان كثيراً . وانفتح معدن بنى سليم فى خلافته ... فكان يضع ذلك فى بيت المال فيقسمه بين الناس سويا ، بين الحر والعبد ، والذكر والأنثى ، والصغير والكبير على السواء . قالت عائشة رضى الله عنها : فأعطى أول عام الحر عشرة والمملوك عشرة ، والمرأة عشرة ... ثم قسم فى العام الثانى فأعطاهم عشرين عشرين[1] » .

فى حروب الردة

« كان المرتدون فريقين : فريق بذلوا الصلاة ومنعوا الزكاة ، وفريق كفروا بالدين كله ... فأما الأولون فقالوا : نؤمن بالله ونشهد أن محمداً رسول الله ، ولكننا لا نعطيكم أموالنا ! فعزم الله لأبى بكر على الحق فقال : والله لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه » .

وكانت عُقُل الصدقة على أهل الصدقة مع الصدقة[2] . فقال عمر لأبى بكر رضى الله عنهما : كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا : لا إلاه إلا الله ، فمن قال : لا إلاه إلا الله ؛ فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه ، وحسابه على الله تعالى . فقال أبو بكر : والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة ؛

---

(١) الخراج لأبى يوسف (٢) تاريخ الطبرى .

فإن الزكاة حق المال . والله لو منعونى عناقا « الأنثى من أولاد المعز » لقاتلتهم على منعها[1] .

وجادله فى ذلك كثير من الصحابة . ورأى الصحابة أن اللين أولى وأن الأرض قد زلزلت بالردة فما يطاق تثبيتها ، وأبو بكر ماض فى الذى شرح الله له صدره من الحق لا يضعف ولا يلين . ولقد قال عمر : ياخليفة رسول الله : تألف الناس وارفق بهم ، فقال : رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك ! أجبار فى الجاهلية ، وخوار فى الإسلام ؟ ! إنه قد انقطع الوحى وتم الدين ، أوَ ينقص وأنا حى ؟ ؟ أليس قد قال النبى صلى الله عليه وسلم إلا بحقهما .. ومن حقهما الصلاة وإيتاء الزكاة . والله لو خذلنى الناس كلهم لجاهدتهم بنفسى[2] » .

* * *

ومن هنا نرى أن الإسلام يعلن الحرب كل الحرب على هؤلاء الأغنياء الذين يمنعون حق الفقراء من الأمة ؛ لأن هذا الحق ليس ملكاً لهم ، وإنما هو ملك لهذه الطائفة الكثيرة المنتشرة . وعلى الدولة أن تنتزعه منهم انتزاعاً ، وتأخذه منهم بكل شدة وقوة ! ! فالزكاة والفائض من رءوس الأموال هو التأمين الاجتماعى الأعظم فى الدين الإسلامى الحنيف .

---

(١) الصحيحان .   (٢) الصحيحان .

والدين الإسلامى الحنيف لا يعرف المهادنة مع النفوس الكزّة الشحيحة ؛ بل هو يدعو إلى البذل والتضحية بلغة السماء ، ولغة النبوة ، ولغة الواقع الذى يتطلب الرحمة والبر والتعاون . وقد استجاب أبو بكر لهذه اللغة الاشتراكية وتضحياتها .

« قال عروة بن الزبير : أنفق أبو بكر ثروته كلها فى سبيل الله ، وكانت تقدر بأربعين ألف درهم فى صدر الإسلام . وأيدت ذلك السيدة عائشة فيما أخرجه أبو حاتم » .

وأخرج أبو نعيم فى الحلية عن الحسن البصرى أن أبا بكر أتى النبى صلى الله عليه وسلم بصدقة فأخفاها ، ثم قال : يارسول الله هذه صدقتى ولله عز وجل عندى معاد . وجاء عمر فأبرز صدقته وقال : يارسول الله ، هذه صدقتى ولى عند الله معاد ! ! فقال له رسول الله : يا عمر : لقد وترت قوسك بغير وتر ! ما بين صدقتيكما كما بين كلمتيكما » .

« وفى غزوة العسرة ترك أبو بكر نفسه وأولاده لله ولرسوله وقدم ما بقى عنده من ماله » .

ذلكم الروح المبالغ فى الاشتراكية ، الناظر إلى المال على أنه وسيلة ووسيلة فقط ، لبناء الأمة الصالحة ، لبناء السياسة الحربية ، لإيجاد شعب نافع ؛ لإقامة مبادئ العدالة والمساواة ... أضفى على أبى بكر تواضعا

وزهادة ؛ فليس المال يؤخذ ـ فى مذهب الإسلام وأبى بكر ـ المظهر الـكاذب ، ولا للملابس الفضفاضة ! إن للمال رسالة أسمى من هذا ؛ إن للمال رسالة المصنع ، رسالة العامل ، رسالة البناء ، رسالة السلاح ؛ رسالة الرفاهيـة العامة على الأمة كلها ، لا على فرد معين ولا على طبقة معينة ! .

« وفد على أبى بكر رضى الله عنه ملك من ملوك حمير ، ومعه ألف عبد دون ما كان معه من عشيرته ، وعليه التاج والبرود والحلى ، فلما شاهد ماعليه أبو بكر من اللباس والزهد والتواضع والنسك ، ألقى ما كان عليه وتزيّا بزيّه ، حتى إنه رُئى يوماً فى سوق من أسواق المدينة على كتفيه جلد شاة . ففزعت عشيرته وقالوا له : فضحتنا بين المهاجرين والأنصار ؛ قال : فأردتم أن أكون ملـكاً جباراً فى الجاهلية ، جباراً فى الإسـلام ، لا والله . لا تـكون طاعة الرب إلا بالتواضع والزهد فى هـذه الدنيا . وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التـكبر ، وتذللوا بعد التجبر[1] » .

وهكذا يا أخى كانت عباءة أبى بكر وشملته ، هى زيه وملبسه فى الوقت الذى ملك فيه نصف الأرض ، وخلف فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم ...

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم .

فإذا علمت ما أعتقه من عباد الله الضعفاء ، وما كان يأكله ، وما كان يسكنه ، وما كان يسير عليه فى جميع حياته ، علمت أنك أمام رجل اشتراكى من الطراز الأول ، لا يبيح لنفسه أن يشبع ويجوع غيره ، ولا أن يتمتع ويحرم سواه من الناس ! .

(٢)

عمر بن الخطاب

لما تولى الخلافة خطب فى الناس مبيناً لهم سياسته المالية التى يريدها :

« لكم علىّ أن لا أجتنى شيئاً من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه ، ولكن علىّ أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله تعالى ، وأسد ثغوركم ؛ وأن لا ألقيكم فى المهالك . وإذا غبتم عن البيوت فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم . . ! والله مامن أحد أحق بهذا المال من أحد . والله مامن أحد من المسلمين إلا وله فى المال نصيب . والله لئن بقيت ليأتينى الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه » . « وكان يطوف بالبيوت التى غاب أزواجها ويطرقها باباً باباً : ألكن حاجة ؟ وأيتكن تريد شيئاً ؟ . وكان إذا حضر البريد حمله إلى البيوت وقال للزوجات : أزواجكن فى سبيل الله ، وأنتن فى بلاد رسول الله ؛ إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فاقربن من الباب حتى أقرأ لكن » .

مع أهـــله

« قال ابن عمر رضى الله عنهما : أهدى أبو موسى الأشعرى لامرأة عمر ، عاتـكة بنت زيد طنفسة ، أراها تـكون ذراعاً وشبراً ، فدخل عليها عمر فرآها ، فقال : أنى لك هذه ؟ فقالت : أهداها لى أبو موسى الأشعرى ؛ فأخذها عمر فضرب بهـا رأسها حتى نغض ، أى « تحرك واضطرب » ثم قال : علىّ بأبى موسى الأشعرى وأتعبوه . فأُتى به قد أتعب وهو يقول : لا تعجـل علىّ يا أمير المؤمنين ؛ قال عمر : مايحملك على أن تهدى نسائى ؟ ثم أخذها عمر فضرب بها فوق رأسه وقال ، خذها فلا حاجة لنا فيها[1] ».

مع ابنـــه

«عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما قال : اشـتريت إبلاً ، فلما سمنت قدمتُ بها السوق فدخل عمر ، فرأى إبلاً سماناً ، قال :

لمن هذه ؟ فقيل لعبد الله بن عمر ! فجعل يقول : ياعبد الله : بَخٍ بَخٍ : ابنُ أمير المؤمنين . فجئته أسعى . فقلت : مالكَ ياأمير المؤمنين ، قال : ماهذه الإبل ؟ قلت : إبل أنضاء ، اشتريتها و بعثت بها إلى الحمى ، أبتغى ما يبتغى المسلمون ! فأنـكر عليه هذه التجارة لاستغلالها وقال :

---

(١) ابن سعد .

يا عبد الله بن عمر : اغدُ على رأس مالك ، واجعل باقيه فى بيت أمير المؤمنين ! ! »[1] .

وهكذا لم يرض عمر لزوجته أن تتمتع بهدايا على حساب إمرة زوجها ، ولم يرض لابنه أن يتمتع بأى حق زائد على حقوق الرعية .

فى عام الرمادة

قال الأستاذ على الطنطاوى : « ليست المصائب حين تنزل بالأمم والأفراد إلا امتحاناً لحيويتها وكشفاً لحقيقة أخلاقها ، فلا يبدو جوهر الفرد ، ولا تعرف طبيعة الأمة إلا عند نزول المصيبة ! هنالك يظهر الادعاء الكاذب ، والسمو الزائف ، وتعرف الفضيلة الصحيحة ، والأخلاق السامية ، وهنالك يظهر الإيثار والكرم والصبر والثبات ، ويتضح إحسان المحسنين ، وإخلاص المخلصين .

ولقد كان عام الرمادة امتحاناً لحيوية المسلمين ، واختباراً لحقيقة أخلاقهم ، ومبلغ استعدادهم ، فنجحوا فى هذا الامتحان نجاحاً باهراً ، وكان لهم مفخرة خالدة لا تقل عن مفاخرهم الكثيرة فى حلقات العلم وساحات الحروب .

وإذا كانت الأمم بأخلاقها وطبيعة نفسها وقوتها الروحية فإن الأمة الإسلامية كتبت فى هذا العام الأسود صفحة ناصعة البياض ؛

---

(١) الرياض النضرة .

وأظهرت فيه من علو الأخلاق ، وكبر النفس ، وكرم الطباع ، وقوة الحيوية مايدعو إلى الإعجاب ويشبه الأساطير . فقد كان المسلمون من أمير المؤمنين قاهر كسرى وقيصر ، إلى أصغر فرد فيهم ، مثالا عالياً للصبر والإيثار وحب الآخرين ، والشعور بالمصلحة العامة ، والاهتمام بأمر الأمة . وقد حرم عمر على نفسه السمن واللحم ، فلم يذقهما حتى انتهى البلاء ؛ ولم يكن يشبع حتى لايبقى من حوله جائع . وكان يسهر الليالى بطولها يعمل ويسعى ، ويفكر ويبكى ، ويدعو ويبتهل .

إننا نعرف قيمة ذلك يوم نتعلم كيف نكون أوفياء لأمتنا ، لا نهدم تاريخنا ومجدنا لنبنى مجد غيرنا . . . يوم نتعلم الوطنية الصحيحة »[1].

وسمى عام الرمادة لأن الريح كانت تسفى تراباً كالرماد ، أو لأن الأرض صارت سوداء مثل الرماد . والرماد فى اللغة الهلكة . ولقد ظهرت اشتراكية عمر ، واشتراكية الأمة العربية فى ذلك العصر ظهوراً بيناً ، مصر والعراق والشام . . .

هذا كتاب عمر إلى ابن العاص ـ والى مصر ـ يقول فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى العاصى ابن العاصى : سلام عليك . أما بعد فتُرانى هالكا ومن قِبَلى وتعيش أنت ومن قبلك ؟ فيا غوثاه ثلاثا » .

(١) عمر بن الخطاب للطنطاوى .

فرد عمرو بن العاص : أما بعد : أتاك الغوث فلبِّث لبِّثْ ؛ لأبعثن بعير أولها عندك وآخرها عندى ، مع أنى أرجو أن أجد سبيلا أن أحمل فى البحر » . فبعث فى البر بألف بعير تحمل الدقيق ، و بعث فى البحر بعشرين سفينة تحمل الدقيق والودك ، و بعث إليه بخمسة آلاف كساء . . .[1]

وكانت هذه النجدة من مصر دليلاً حياً على أن مصر دائماً أهل للإغاثة وأهل للكرم وأهل للوفاء .

فليست هى اليوم بزعامتها للأمة العربية ودعوتها إلى الاشتراكية السليمة ، إلا امتداداً لتاريخ لها حافل بالعظمة والجلال والتقدير .

وجاءت النجدة من الشام مكونة من ثلاثة آلاف بعير تحمل الدقيق وثلاثة آلاف عباءة .

ووفدت نجدة الكوفة مكونة من ألفى بعير تحمل الدقيق .. »[2] .

وهكذا توالت النجدات من أنحاء الأمة العربية على الجزيرة العربية ، القطر الشقيق ، والبلد العريق ! !

توزيع الطعام

قال عمر للزبير رضى الله عنهما : أخرج فى أول هذه العير فاستقبل

---

(١) ابن سعد (٢) ابن سعد

بها نجدا، فاحمل إلىّ أهل كل بيت قدرت أن تحملهم إلىّ . ومن لم تستطع حمله، فمُرْ لكل أهل بيت ببعير بما عليه، ومُرْهم فليلبسوا كساءين، وينحروا البعير، فليحملوا شحمه وليقدّدوا لحمه، وليحتزّوا جلده، ثم ليأخذوا كُبَّة من قديد، وكُبَّة من شحم، وحفنة من دقيق، فليطبخوا وليأكلوا حتى يأتيهم الله برزق »[1] .

وأظننى فى غنى عن الكلام على هذه الاشتراكية التى ظهرت روحا وعملا فى هذه المواساة الإنسانية البالغة، وهذه النجدة التاريخية الخالدة .

فأما عمر نفسه، فيروى لنا أبو هريرة رضى الله عنه أنه رآه عام الرمادة يحمل على ظهره جرابين هو وأسلم، فلما رآنى قال : من أين يا أبا هريرة .

قلت : قريبا . فأخذت أعقُبُه حتى انتهينا إلى جماعة من نحو عشرين بيتا من محارب، فقال عمر : ما أقدمكم ؟ قالوا : الجهد . قال : فرأيت عمر يطرح رداءه، ثم نزل يطبخ لهم ويطعمهم حتى شبعوا، ثم كساهم، ولم يزل يختلف إليهم وإلى غيرهم حتى رفع الله ذلك البلاء . . . »[2]

---

(١) ابن سعد (٢) الطبرى

عمر مع أحد أفراد شعبه

« عن أسلم قال : خرجنا مع عمر بن الخطاب ، حتى إذا كنا بصرار إذا نار تؤَرَّث ، أى تشعل . قال يا أسلم : إنى أرى ههنا ركباناً قصَّر بهم الليل ! انطلق بنا . فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم ؛ فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار ، وصبيانها يتضاغون « يتصايحون » . فقال عمر : السلام عليكم يا أهل الضوء . فقالت : وعليكم السلام ! فقال : أأدنو ؟ فقالت : ادن بخير أو دع ! فدنا منها ؛ فقال : ما بالكم ؟ قالت : قصر بنا الليل . قال : وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون ؟ ! قالت : الجوع ! قال : وأى شيء فى هذه القدر ؟ قالت : ماء أسكتهم به حتى يناموا ! والله بيننا و بين عمر ! فقال: أى رحمكِ الله . وما يدرى عمر بكم ؟ قالت : يتولى أمرنا ثم يغفل عنا ؟

فأقبل علىَّ وقال : انطلق بنا . فخرجنا نهرول ، حتى أتينا الدار ، فأخرج عدلا من دقيق وكُبَّة من شحم ، وقال : احمله علىَّ . قلت : أنا أحمله عنك ! قال : أنت تحمل وزرى يوم القيامة ؟ لا أمَّ لك؟ فحملته عليه ، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول . فألقى ذلك عندها وأخرج من الدقيق شيئاً ؛ وجعل يقول لها : ذَرِّى علىَّ . . . . وجعل ينفخ تحت القدر ، وكانت لحيته عظيمة . فرأيت الدخان يخرج من خلال لحيته ، حتى طبخ لهم . ثم أنزلها ، فقال : أبْغِنِى شيئاً . فأتته

بصحفة فأفرغه فيها . فجعل يقول لهـا : أطعميهم وأنا أسطح لهم ، أى أبسطه حتى يبرد . فلم يزل حتى شبعوا ، وترك عنـدها فضل ذلك الطعام »[1]

من أمثلة « الولاة » فى عهده

« كان عمير بن سعد عاملا لعمر على حمص ومكث حولا لا يأتيه خبره . فقال عمر لكاتبه : اكتب إلى عمير « إذا جاءك كتابى هـذا فأقبل ! وأقبل بما جبيت من فىء المسلمين حين تنظر فى كتابى هذا » فأخذ عمير جرابه فجعل فيه زاده وقصعته ، وعلق إداوته وأخذ عنزته ، ثم أقبل يمشى من حمص ، حتى قدم المدينة ، فقدم وقد شحب لونه ، واغبر وجهه . فدخل على عمر وقال : السلام عليك ياأمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته . فقال عمر : ما شأنك ؟ فقال عمير : ما ترى من شأنى ؟ ألست ترانى صحيح البدن ، طاهر الدم . معى الدنيا أجُرّها بقرنها ؟ قال عمر : وما معك ؟ فقـال : معى جرابى ، أجعل فيه قصعتى وزادى ، وعنزتى ، فوالله ما الدنيا إلا تبع لمتاعى . قال عمر : فجئت تمشى ؟ قال : نعم . قال عمر : أما كان هناك أحد يتبرع لك بدابة تركبها ؟ قال : ما فعلوا وما سألتهم ذلك ... ثم سأله عمر : وأى شىء صنعت ؟ قال :

---

(١) الطبرى وابن الجوزى .

بعثنى حتى أتيت البلد ، فجمعت صلحاء أهلها ، فوليتهم جباية فيئهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه . ولو نالك منه شيء لأتيتك به !! »[1]

* * *

كل هذه النصوص أضعها بين يديك ؛ لتعلم ما كان عليه عمر ابن الخطاب من اشتراكية مثالية ، كان يفرضها على نفسه ، فكان لا يحب أن يتميز على الرعية بشيء ؛ وكان يفرضها على أهله وعياله ، وكان يفرضها على الولاة .. وستجد تفصيلا أكثر عن سياسته المالية فى فصلنا « التوازن الاقتصادى فى الإسلام » .

وبذلك نرى عمر قد وضع القواعد السليمة للاشتراكية العامة فى الرخاء والشدة ، والبأساء والنعماء . كان لا يرضى لطبقة أن تسود طبقة ولا لفئة من الناس أن تحتكر فئة . فهو الداعى ربه فى خطبته أن يلينه للضعيف ، وأن يقويه على الأشداء .

وقد كان فعلا مثالا للرحمة والبر ، والتعاون ، والإخاء والمساواة والحرية والإنصاف .

« فرحة عمرية »

قدم عليه أبو هريرة يوماً ـ وكان والياً على البحرين ـ بخمسمائة ألف درهم ، فقال له عمر : ماذا معك ؟ قال أبو هريرة : خمسمائة ألف

---

(١) حلية الأولياء .

درهم ، فابتسم عمر وقال : هل تدرى ما تقول ؟ قال أبو هريرة : نعم : مائة ألف درهم ومائة ألف ومائة ألف ومائة ألف ومائة ألف . فهبّ عمر وخطب : أيها الناس : لقد جاءنا مال كثير ! فإن شئتم كِلْنا لكم كيلا ، وإن شئتم عددنا عداً ؛ فأشار الصحابة بتدوين الدواوين .. فدونت من وقت ذاك » .

قال حافظ إبراهيم :

وراع صاحب كسرى أن رأى عمرا
بين الرعية عطلا وهو راعيها

رآه مستغرقاً فى نومه فرأى
فيه الجلالة فى أسمى معانيها

فوق الثرى تحت ظل الدوح مشتملا
ببردة كاد طول العهد يبليها

وما استبد برأى فى حكومته
إن الحكومة تغرى مستبدّيها

إن جاع فى شدةٍ قومٌ شركتهمو
فى الجوع أو تنجلى عنهم غواشيها

جوع الخليفة والدنيا بقبضته
فى الزهد منزلة سبحان موليها ..

(٣)

أبو ذر

خطب أبو ذر فقال مبيناً مذهبه :

« يامعشر الأغنياء : واسوا الفقراء ! وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، بمكاو من نار تـكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم !

يا كانز المال : اعلم أن فى المال ثلاثة شركاء : القدر لايستأمرك أن يذهب بخيرها أو شرها من هلاك أو موت ، والوارث ينتظر أن تموت ثم يستاقها وأنت ذميم ، وأنت الثالث ؛ إن استطعت أن لا تكون أعجز الثلاثة فلا تـكونن . إن الله عز وجل يقول :

« لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون »[1]

« يا كانز المال: ألا تعلم أنه مامن يوم يصبح العباد فيه إلا وملكان ينزلان فيقول أحـدهما : اللهم أعط منفقاً خلفا . ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفا » .

وثارت نفوس المستمعين من الفقراء لهذه الخطبة ، وكانت فى الشام، وسمع بها معاوية ؛ فأراد أن يختبر أبا ذر فى دعوته ! فدعا معاوية رجلا وأعطاه ألف دينار وقال له : اذهب بها إلى أبى ذر وأعطها له ، ثم تغيَّبْ

---

(١) آل عمران .

ثلاثاً واذهب إليه وقل له : إن المال لم يكن لك وأنا أخطأتك ، فردّها علىّ . . .

وأخذ أبو ذر المال ؛ و بعد ثلاثة أيام عاد الرجل ليطلبه . فقال أبوذر للرجل : بلغ معاوية أن المال أنفقناه على الفقراء ، فلو أخرنا ثلاثة أيام جمعناه ! !

و بذلك عرف معاوية أن دعوة أبى ذر كانت قولا وعملا ، وقانوناً وتطبيقاً ؛ ولذلك كان أثر الدعوة صادقاً فى القلوب ، وكبيراً فى النفوس !! حتى إنه كان إذا تكلم سكن هياج القوم ، وأنصت متكلمهم ، وفعلت بهم الدعوة فعل السحر فى النفوس !

مذهب أبى ذر

ذهب أبو ذر الغفارى رضى الله عنه إلى أنه يجب على كل مالك أن يدفع مازاد عن حاجته ؛ وأنه يحرم ادخار المال واكتنازه ؛ بل يجب أن تستغل رءوس الأموال فى البر والخير والصالح العام .

وكان دليله من القرآن الكريم قوله عز وجل :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ! هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »[1] .

و يمتاز أبو ذر بصدق اللهجة ، وتحديد الفكرة ، وصرامة النظرة ،

---

(١) سورة التوبة .

ودقة الهدف . . وفى ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى الله عمر ، وأشدهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبى بن كعب ، ولكل أمة أمين ، وأمين هذه الأمة ابن الجراح ، وما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر » !!

* * *

والنزعة الاشتراكية التى كانت عند أبى ذر لم تكن وليدة رأيه أو فكره . وإنما هى فلسفته التى استقاها من تعاليم نبيه صلى الله عليه وسلم فيروى أنه قال :

« كنت أمشى مع النبى صلى الله عليه وسلم فى حرة بالمدينة ، فاستقبلنا جبل أحد ، فقال : مايسرنى أن عندى مثل أحد ذهباً تمضى عليه ثلاث ليال وعندى منه دينار ، إلا شىء أرصده لدينى ، إلا أن أقول فى عباد الله هكذا وهكذا ، مشيراً بيده عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، ثم سار : إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال : هكذا هكذا . عن يمينه وعن شماله . وقليل ماهم » .

ومرة سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« يا أبا ذر : أترى كثرة المال هو الغنى ؟ قلت نعم ! قال : أفترى

قلة المال هو الفقر ؟ قلت نعم . قال : إنما الغنى غنى القلب ، والفقر فقر القلب ! .

ثم سألنى عن رجل من قريش : هل تعرف فلانا ؟ قلت : نعم . قال فكيف تراه ؟ قلت : إذا سأل أعطى ، وإذا حضر أدخل . ثم سألنى عن رجل من أهل الصفة ! قال : هل تعرف فلانا ؟ قلت لا والله ما أعرفه ! فما زال يحليه وينعته حتى عرفته ! فقلت : قد عرفته يا رسول الله . فقال : كيف تراه ؟ قلت : هو رجل مسكين من أهل الصفة ! قال : هو خير من ملء الأرض من الآخر ! قلت : أفلا يعطى من بعض مايعطى الآخر ؟ قال : إذا أعطى خيراً فهو أهله ، وإذا صُرف عنه فقد أعطى حسنه » .

« ومرة ثار أبو ذر على معاوية وقال بعد أن رآه يبنى قصراً مشيداً يسمى الخضراء : إن كان هذا من مال المسلمين فهو خيانة ، وإن كان من مالك فهو إسراف . يامعاوية : لقد أغنيت الغنى ، وأفقرت الفقير » .

ويعلق الأستاذ الغزالى على نزعة « أبى ذر الاشتراكية » فى كتابه « الإسلام المفترى عليه » فيقول :

« يقولون : إن أبا ذر كان شيوعياً ، وأن له فى مذهبه أجر المجتهد المخطىء » .

ونحن نتساءل : لم ينسب أبو ذر لهـذا المعنى ، ولم نظلم الرجل الـكبير ، ونظلم الإسلام معه ، بجعل الاشتراكية الإسلامية الواجبة نزعة محاربة . ؟

لقد كان أبو ذر صاحباً أميناً لرسـول الله ، فلما انتقل إلى الرفيق الأعلى بقى صاحبا أميناً للخليفة من بعده . وظل وادعاً قرير العين فى عهد أبى بكر وعمر ، وهو يرى أضواء الإسـلام تأخذ مسيرها فى آفاق العالمين ، وجنود الحق يهدمون معاقل الأرستقراطية الـكافرة فى فارس والروم ، حتى كان الناس إخوانا على فطرة الله التى فطر الناس عليها . لا سادة ولا عبيد ، ولا إقطاع ولا احتكار .

فلما حاولت فئـات من المتعطلين والمتحللين أن تخلد إلى الراحة . وأن تنقل أخلاق الدعة والركود إلى مجتمعات الإسـلام الناهض وأن تـكون من غنائم الفتوح وإقبـال الدنيا طبقات مترفة لاشغل لها إلا باللذائذ والشهوات بدأ أبو ذر وغيره يزمجرون ! ! .

وإن كان أبو ذر أعلى صوتاً ، وأصدق حجة ، وأعظم سابقة ! !

* * *

نعم : بدأ أبو ذر يستنكر مع أنه فى أيام عمر كان بادى الرضا عن الحالة العامة ، مستريح الضمير للأسلوب الذى حكم به عمر جمهور الأمة ، فهل كان عمر كأبى ذر شيوعياً كما يقولون ! ! .

يروى أن عمر خرج كئيباً محزوناً ، فلقيه أبو ذر .

فقال له : مالى أراك كئيباً حزيناً ؟

فقال : ومالى لا أكون كئيباً حزيناً ، وقد سمعت بشر بن عاصم يقول :

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« من ولى شيئاً من أمر المسلمين أتى به يوم القيامة حتى يوقف به على جسر جهنم ؛ فإن كان محسناً نجـا ، وإن كان مسيئاً انخرق به الجسر فهوى فى جهنم سبعين خريفاً » ! .

فقال أبو ذر : أوَ ما سمعته من رسول الله ؟

قال : لا .

قال : أشهد أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من ولى أحداً من المسلمين أتى به يوم القيامة على جسر جهنم ، فإن كان محسناً نجا وإن كان مسيئاً انخرق به الجسر ! ! فهوى فيها سبعين خريفاً ، وهى سوداء مظلمة » .

فأى الحديثين أوجع لقلبك ؟ ؟ .

قال : كلاهما قد أوجع قلبى ! !

فمن يأخذها بما فيها ؟

قال أبو ذر: من جدع لله أنفه ، وألصق خده بالأرض ! ! .
أما إنا لانعلم إلا خيراً ، وعسى إن وليتها من لايعـدل فيها أن
لا تنجو من إثمها ! ! » .
فهـا هو ذا أبو ذر يعلن عن رأيه فى سياسة عمر تعضيداً وتأييداً
بل هو يرغب إلى عمر أن يتحمل أعباء الخلافة ولو ضاق بها ذرعاً ! !
خوفاً أن يلى الأمر من بعده مَن يسىء إلى نفسه و إلى المسلمين ! ! .
ولا غرو . . أن يكون ذلك رأى أبى ذر ! ! .
فإن أمير المؤمنين هو صاحب الـكلمة الرائعة :
«لو استقبلت من أمرى مااستدبرت لأخذت فضول أموال الأغنياء
فرددتها على الفقراء » .
وحكم عمر كان امتداداً موفقاً للخلافة الأولى التى سوّت بين مانعى
الزكاة والمرتدين ، وأعلنت عليهم حرباً واحدة ، وكلا الخليفتين كان
يمشى فى آثار النبوة بحزم وقوة ! ! .
ولم يكن صاحب الرسالة العظمى إلا أسوة حسنة للانغماس فى عامة
الشعب والعمل لهم وفيهم ! ! وهو الذى يقول :
« ابغونى فى ضعفائـكم ، فإن ماترزقون وتنصرون بضعفائـكم » .
فالمسـلك الرشيد بل المنهج الفريد الذى يرسمه الإسلام لسياسة
الشعوب الاقتصـادية والاجتماعية هو كفالة كتل الشعب الـكبيرة

والاعتزاز بها ومنع كل شارة من شارات الغطرسة والترف عليها ! .

* * *

لم يكن أبو ذر شيوعياً ، ولم يدع قط إلى الشيوعية ، كان فى حياته سهلاً ليناً مع الفقراء ، قوياً شديداً مع الأغنياء ، يعيش مع خادمه فى طعام واحد . وعلى لباس واحد ، فلما حضرته المنية فى المنفى ، استعير له الكفن الذى يلقى فيه ربه . .

وقام بمواراة الجثة الطاهرة وفد عراقى كان يمر بالربذة إلى الحجاز فلم يلفت جثمان أبى ذر ولا حمل على عربة مدفع ! ! .

ولكن ؛ حسبه أن ملائكة الرحمة بسطت لروحه الكبير أجنحتها لترفعه إلى أعلى عليين » .

* * *

وهكذا نلاحظ أن أبا ذر لم يشتط إلا فى محاربة الاحتكار .

ولئن كان فى مذهبه اشتطاط كما يقال ؛ فإنما لأنه يوجب على الناس أن ينفقوا مازاد على حاجتهم .. والإسلام قد حبب فى ذلك واستحبه .

ونلاحظ كذلك أنه ليس فيها أى اتجاه من الاتجاهات الشيوعية الحديثة ! ! .

فالدعوة الغفارية تثبت الملكية الفردية الإنتاجية والاستهلاكية والشيوعية تمنع الملكية الفردية الإنتاجية ! ! .

وأبو ذر يدعو إلى دعوته بالسلم والإقناع .

والشيوعية تدعو إلى مذهبها بالحديد والنار .

فالفرق بينهما فرق التراب من التبر ، وفرق الشعاع من الدرّ . .

* * *

(٤)

علي بن أبي طالب

جاء فى خطبته الأولى مما يتعلق بالمال :

« ألا وأيما رجل استجاب لله ولرسوله ، فصدق ملتنا ، ودخل ديننا ، واستقبل قبلتنا ، فقد استوجب حقوق الإسلام وحدوده ، فأنتم عباد الله والمال مال الله ، يقسم بينكم بالسوية ، ولا فضل فيه لأحد على أحد ، وللمتقين عند الله أحسن الجزاء » و يقصد بالمال هنا « الغنائم والفىء » .

« ومرة اشترى ثو بين فأعطى أحسنهما لخادمه ، فقال له خادمه : أنت أحق وأولى ؛ فقال الإمام كرم الله وجهه : أنت شاب ، أما أنا فقد هرمت » .

« وكان عثمان بن عفان قد أقطع بعض الولاة إقطاعاً ، فسلبه على منه وقال : والله لو وجدته تزوج بالمال الذى أخذه لرددت زواجه ، فإن فى العدل سعة ، ومن ضاق عليه العدل ، فالجور عليه أضيق » .

« فكانت امرأته فاطمة بنت رسول الله تطحن الشعير بيديها ، ويختم هو على جراب الشعير ويقول : لا أحب أن يدخل بطنى إلا ماأعلم » .

« وروى هارون بن عنترة قال : دخلت على علىّ فى فصل الشتاء وعليه خلق قطيفة يرعد فيها ! فقلت يا أمير المؤمنين : إن الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيباً ؛ فقال : والله ماأرزؤكم شيئاً ، وما هى إلا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة » .

* * *

(٥)

عمر بن عبد العزيز

« نظر إلى فصّ خاتم ثمين فى يده غداة تولى الخلافة . ثم قال : إن بيت مال المسلمين أولى به من يدى . ثم نظر إلى الإقطاعات التى ورثها وكانت كثيرة وافرة فردها إلى بيت المال » .

« وفى صبيحة الخلافة نظر من حوله فوجد خيلا و برازين و بغالا مطهمة لكل دابة سائس ، فقال : ماهذا ؟ فقيل : هذا ركب الخليفة ! فالتفت إلى غلامه وقال له : ضمّ هذا كله إلى بيت مال المسلمين » .

« وجاءه أولاد سليمان بن عبد الملك بثياب ناعمة غالية ، فسأل : ماهذا ؟ فقالوا : هذه ثياب أبينا ! مالبسه منها أخذناه ، وما لم يلبسه

تركناه ، فهو لك ؛ فقال عمر بن عبد العزيز : هذا ليس لكم ولا لسليمان ابن عبد الملك ولا لى ، إنما هو لبيت مال المسلمين » .

« وقال لزوجته فاطمة بنت عبد الملك ، وكان عندها جواهر كثيرة ؛ اختارى لنفسك : إما أن تردى هذا إلى بيت مال المسلمين ، و إما أن تأذنى لى فى فراقك ؛ فقالت الزوجة العاقلة : بل أختارك عليه وعلى أضعافه ، لو كان لى .

فلما توفى عمر وتولى يزيد بن عبد الملك أخوها ، قال لها : يافاطمة : إن شئت رددتُ عليك حليك ، فقالت : طبت عنه نفساً فى حياة عمر . ثم أسترده بعد وفاته ، لا والله أبداً » .

« ودخلت عمته عليه تعاتبه يوماً على العطاء الذى كان يصلها من الملوك الذين قبله ، فقال لها ياعمة : إن عمى عبد الملك ، وأخى الوليد ، وأخى سليمان ، كانوا يعطونك من مال المسلمين ، وليس ذلك المال لى فأعطيكه » .

« وقدم « عنبسة » بن سعيد رقعة فيها عشرون ألف دينار كان قد أمر بها سليمان بن عبد الملك له ، ولم يقبضها حتى توفى سليمان وولى عمر بن عبد العزيز ؛ فأبى عمر أن يدفعها له . وقال : والله مالى من ذلك من سبيل » .

« وكتب إليه عامله فى العراق يقول : « إن الناس قد كثروا فى

الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج ، فكتب إليه : والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من عمل أيدينا » .

* * *

« الحاشية العمرية »

« ليس لأحد من خاصة عمر أن يأمر فى مال ، أو جهد أو دابة ، إلا بحق . ومرة حمل مولى له رجلا على خيل البريد بغير إذنه . فدعاه وقال له لا تبرح حتى تقوّمه وتضعه فى بيت المال » .

رفض زواج

« طلب ابن عمر بن عبد العزيز من أبيه أن يتزوج امرأة أخرى غير زوجته الأولى وأن يدفع له الصداق من بيت مال المسلمين . فلما وصل الطلب إلى عمر غضب وكتب إلى ابنه : لعمر الله أتانى كتابك تسألنى أن أجمع لك بين الضرائر من بيت مال المسلمين وأبناء المهاجرين لا يجد الواحد منهم امرأة يستعف بها فلا أعرفن ما كتبت !! وانظر إلى ماقبلك من نحاسنا ومتاعنا ، واستعن به على مابدا لك »

بيت المال

« كان المال الذى فى هذا البيت يقسم على كافة المسلمين بالسوية وعلى من معهم من أهل الكتاب كذلك ! وكان عمر بن عبد العزيز

يحاول أن يجعل لكل فرد فى رعيته مسكناً وخادماً وفرساً وأثاثاً فى بيته .

ووحد عمر بيوت المال كلها فى بيت واحد . والحكمة فى ذلك أنه لو اغتنى بلد وافتقر آخر ، سدّ البلد الغنى حاجة البلد الفقير وعجزه . و بناء على ذلك صار العالم الإسلامى فى مدته وحدة ذات قوة وتماسك يسد بعضها حاجات بعض »(١)

ونكتفى بهذا القدر من أمثلة ذلك الاشتراكى العظيم الذى فتح آفاق الاشتراكية على نطاقها الواسع ، وحزم أمرها بكل شدة وكل حزم . ولو استطردنا لذكرنا الكثير والكثير ؟ . . .

* * *

هذه هى اشتراكية الإسلام ، وهؤلاء هم بُناتها . .

فهل يعتبر الإقطاعيون من حكام المسلمين فى هذه الأيام ... أم يحبون أن ينفصل تاريخهم وحياتهم عن حياة الأمجاد الماضية ، وتاريخ العظماء السابقين . . . أيتها الشعوب المؤمنة : تيقظى وانتبهى ، فحقوقك هى الخالدة ، ودول الظلم ستذهب وتزول .

---

(١) كانت مراجعنا فى هذه الأخبار : تاريخ العرب المطول ، وابن الجوزى ، ومحاسن السلوك ، وابن عبد الحكم ، والخراج لأبى يوسف ، وحياة الحيوان .

التوازن الاقتصادى

فى الإسلام

الإسلام يرى أن التفاوت بين أفراد الشعوب فى الأرزاق راجع إلى التفاوت الخلقى الطبيعى الموجود فى قوى الأفراد المختلفة .. ومصدره مشيئة الله .

ففى القرآن « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق »[1] وأيضاً : « ولنبلونكم بشىء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات »[2] وأيضاً : « ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا فى الأرض ، ولكن ينزل بقدر مايشاء إنه بعباده خبير بصير »[3] .

ولقد اعترف بهذا التفاوت الخلقى بعض كبار أئمة الاقتصاد فى هذا العصر ، ومنهم الاقتصاديان الإنجليزيان الشهيران « ألفرد ماريشال ، واللورد كنز » فقد اعترف الأول بغريزية التفاوت بين الناس ، ويرى الثانى أن هذا التفاوت مصدر لاختلاف أحكام الناس فى توفير المال واستثماره فى نظم المشاريع الخاصة . ...

وبذلك يكون هذان العالمان قد قررا ماقرره الإسلام منذ ألف وأربعمائة سنة ! فإباحة أصل الملكية لاغبار عليها فى الإسلام ، بل ثبّت هذه الملكية وغرسها فى النفوس . وقرر الزكاة ركناً من أركانه ؛ وماهذا إلا لأن الزكاة معناها ملكية أفراد من الأمة نصاب الزكاة . . .

---

(١) النحل (٢) البقرة (٣) الشورى !

والإسلام فى هذا يراعى طبائع البشر وحاجاتهم .. فالملكية لدى الإنسان دافع قوى غريزى لأن يطمح ويسعى ويكافح ويناضل ...

وقد عاش الإسلام وسيعيش أكبر مدة تحددها المقادير لدين، لأنه الدين الخالد المناسب لكل عصر، الملائم لجميع الطبقات !!

هناك أديان ومذاهب أخرى لاترى مارآه الإسلام ... فالبرهمية فى الهند تعلن أن السعى لملك الثروة إثم؛ والبوذية تحرم على الرهبان ملك شىء أو مباشرة مهنة ! ولقد غالى بعضهم فى ذلك حتى حرم ملك الثياب الضرورية لستر العورة ! وحتى المذاهب التى أيدت الملكية، خرجت بها عن الحدود المشروعة المعقولة .. فالكنفوشية فى الصين كانت تفوض ملكية كل شىء إلى قيصر الصين ـ خليفة السماء وحاكم الأرض؛ والزرادشتية فى إيران تعزز الملكية ولكن على أساس الثنوية « القائلة بإله الخير وإله الشر » . والثنوية ترى أن جميع الملكية توزع فى الخير لنصرة إله الخير على إله الشر ... ولا يصح أن تكون هناك ملكية خاصة ! وديانة الزنج لاتبيح إلا ملكية الأرض !!

ومن الحق : أن نقول: إن أتباع هذه الديانات وتلك المذاهب اضطروا إلى الانحراف عن تعاليم دياناتهم ، حين وجدوها لاتوائم طبيعتهم البشرية ولا حياتهم الاجتماعية !! ولا نجد إلا الأقل القليل يتبع هذه الأديان وتلك المذاهب[1] ...

---

(١) راجع فى هذا بتوسع كتاب « الملكية فى الإسلام » للسيد أبى النصر الحسينى .

والإسلام حين أباح الملكية أباحها فى كل ماجاز ملكه . . وقلنا : ماجاز ملكه ، لأن الشريعة الإسلامية لاتؤيد ملك المحرمات ؛ كالخمر والميتة وغيرها . . .

والسؤال الذى نريد أن نوجهه الآن :

هل للإنسان أن يملك كل مايستطيع ملكه من عقار ومتاع و بساتين .. أم هناك ضرورات اقتصادية واجتماعية تقضى بتفتيت الثروة فى حدود الإنصاف والعدالة . . ؟

و يجيب على ذلك الدكتور على عبد الواحد وافى ، فيقول :

« لقد حرص الإسلام أيما حرص على تحقيق المساواة بين الناس فى شئون الاقتصاد ، وذلك بالعمل على تحقيق تكافؤ الفرص بينهم فى هذه الشؤون ، وعلى تقليل الفروق بين الطبقات وتقريبها بعضها من بعض ؛ وتحقيق الاشتراكية المعتدلة فى أحسن صورها ، إذ وصلت شريعة الإسلام فى مبلغ حرصها على تقرير هذا النوع من المساواة إلى شأو رفيع لم تصل إلى مثله ، بل لم تصل إلى مايقرب منه أية شريعة أخرى من شرائع العالم ، قديمه ومتوسطه وحديثه !!

ولعل أهم الوسائل لتحقيق ذلك ، مااتخذه الإسلام حيال طرائق الكسب ؛ فقد حرم تحريماً قاطعاً جميع الطرائق التى تؤدى عادة إلى تضخم رءوس الأموال ، كابتذاذ الأموال ، والتقرب من الحاكم ،

واستعمال النفوذ وما يشابهها . . وقد حرم الإسلام الربا تحريماً قاطعاً وجعله من أكبر الكبائر ، وآذن مستعمليه بحرب من الله ورسوله . .

« ووضع الإسلام للميراث نظاماً حكيما يكفل توزيع الثروات بين الناس توزيعاً عادلا ، ويحول دون تجمعها فى أيد قليلة . ويفتت رءوس الأموال إلى ملكيات صغيرة ، وذلك أنه يقسم التركة إلى عدد كبير من أقرباء المتوفى ، فيوسع بذلك دائرة الانتفاع بها من جهة ، ويحول من جهة أخرى دون تجمع ثروات كثيرة فى يد فئة محدودة من الناس . . . هذه هى أمثل طريقة لتقليل الفروق وتقريبها بين بعضها وبعض ، وتحقيق الاشتراكية المعتدلة فى أمثل صورها ! .

وفرض الإسلام على مختلف أنواع الثروة أنواعاً من الضرائب والزكاة تكفل عدالة اجتماعية عظيمة ويسد حاجات المعوزين ، ويحول دون تضخم الثروات . . . وأوجب الإسلام على الأغنياء فى بعض مواسم تتكرر كل عام أن يخرجوا من أموالهم صدقات للفقراء والمساكين . . كزكاة الفطر ، والضحايا فى عيد الأضحى ، والهدى فى الحج ؛ هذا إلى كفارات للخطايا ، توزع على شكل مساعدة للبائسين والمحرومين ، مثل كفارة الظهار ، وكفارة اليمين وما شابه ذلك . . . كما أوجب الإسلام على الأغنياء مساعدة العجزة عن الكسب على ماهو مفصل فى كتب الفقه الإسلامى ! ! وأوجب أن يعيش أهل كل

حى فى تـكافل اجتماعى كبير حتى لو مات رجل من الجوع ، لدفع أهل الحى ديته ؛ لأنه تقصير وتفريط ، ومن هذا يظهر صدق ماقلناه من أن شريعة الإسلام قد وصلت فى مبلغ حرصها على تقرير المساواة بين الناس إلى شأو رفيع لم تصل إلى مثله أية شريعة أخرى من شرائع العالم قديمه ومتوسطه وحديثه[1] » .

ولو رجعنا إلى المدينة يوم أن هاجر إليها المسلمون بعد أن تركوا أوطانهم وأموالهم وعقارهم وديارهم ، وكان هناك الأنصار أصحاب المدينة ملاكا لأرضهم ، وقُوّاماً على أملاكهم . . ومع أنهم كانوا خير أناس فى كرم الضيافة ؛ وسعة الصـدور ، وحسن الأريحية . فالله عز وجل شرع أول فىء جاء للمهاجرين دون الأنصار ، ماعدا رجلين فقيرين . . وكان هذا الفىء فىء بنى النضـير ؛ ذلك لـكى يكون هناك توازن فى الملـكية بين المهاجرين والأنصار ؛ وإلى هذا يشـير الله سبحانه إذ يقول « ماأفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمسـاكين وابن السبيل ، كى لا يـكون دولة بين الأغنياء منكم[2] » .

فالأموال لا يصح أن تـكون وقفاً على أناس دون أناس ؛ ولاعلى

(١) حقوق الإنسان .

(٢) سورة الحشر .

طبقة دون طبقة ، فإن ديننا لايعرف الاحتكار ولا الظلم ولا البغى ولأ كل أموال الناس بالباطل . « ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون »[1] والحق أن الأغنياء من الأنصار ، أو من المهاجرين بعد ذلك كانوا مثالا للرحمة الرحيمة والمواساة الطيبة ، والبر الموصول ، والعطاء المبذول .

حتى الحكام والولاة فى الإسلام ، لايجوز أن يتميزوا عن الشعب بإقطاع أو جمع للمال من هنا وهناك ! .

كان سيدنا عمر يقول : أنزلت نفسى من بيت المال بمنزلة ولى اليتيم ، إن استغنيت عففت ، و إن افتقرت أكلت بالمعروف[2] » .

ومرة سمع جماعة يتساءلون عما يحل له من بيت المال ، فما غضب ولا فزع ، و إنما قال لهم : « سأخبركم بما يحل لى : حلة فى الصيف وحلة فى الشتاء ، وما يسعنى لحجى وعمرتى ، وقوت أهل بيتى ، وسهمى مع المسلمين كسهم رجل ليس بأرفعهم ولا بأوضعهم ، ثم أنا بعدُ رجل من المسلمين يصيبنى ماأصابهم[3] » .

---

(١) سورة البقرة .
(٢) ابن الجوزى والطبرى
(٣) ابن عساكر مخطوط .

وهكذا كان يشترط فى ولاته وأمرائه . كان يقول لهم « إنى لم أبعثكم جبابرة ولكنى بعثتكم أئمة ! فلا تضربوا المسلمين فتذلوهم ، ولا تحمدوهم فتفتنوهم ، ولا تمنعوهم فتظلموهم ، ثم يشترط على الوالى أن لا يركب مركباً مرفها ، ولا يلبس ثوباً رقيقاً ، ولا يأكل نقياً ، ولا يغلق بابه دون حوائج الناس[1] . » وكان مع عماله فى رواتبهم أسخى من نفسه ، فأعطى عماراً ستمائة درهم له ولعماله ومؤذنيه فى كل شهر حين ولاه على الكوفة . وكان يعطيه كل يوم نصف شاة ورأسها وجلدها وأكارعها[2] » .

ومن هنا نعرف أن ابن الخطاب كان يدقق فى محاسبة الولاة لأنه كان يعطيهم ما يكفيهم ، فإن لم يعيشوا فى سعة لم يعيشوا فى ضيق . فإذا بلغه أن والياً انحرف قليلا أو كثيراً شدد فى معاملته ودقق فى محاسبته ! ! . وكم صادر أموالا ، وشاطر الولاة متاعهم وأملاكهم . . حتى لقد عرض الفاروق الحكم على أبى هريرة فقال له « أخشى أن أقول بغير علم ، وأقضى بغير حكم ، فيضرب ظهرى ، ويشتم عرضى ، وينزع مالى » وذلك بعد أن صادر أمواله !! حين كان والياً على البحرين[3] .

---

(١) عيون الأخبار

(٢) سراج الملوك .

(٣) ابن سعد .

ولقد صادر مال أبى موسى الأشعرى على الشبهة والظنة حين كان والياً على البصرة ، وصادر الحارث بن وهب . . . فلما راجعه الحارث قائلا : لقد تاجرت بمالى فيها ، قال له : ما بعثنا بك للتجارة ، وإنما بعثنا بك للإمارة[1] . ومن هذا ندرك حرص الإسلام على أن يكون هناك توازن بين طبقات الأمة ، وعلى أن تكون هناك مساواة فى الكفاءة والفرص وأبواب الارتزاق . . .

ونستطيع أن نلخص قواعد النظام الاقتصادى فى الإسلام فيما يلى[2] :

«(١) اعتبار المال الصالح قوام الحياة ووجوب الحرص عليه وحسن تدبيره وتثميره .

(٢) إيجاب العمل والكسب على كل قادر .

(٣) الكشف عن منابع الثروات الطبيعية ووجوب الاستفادة من كل مافى الوجود من قوى ومواد .

(٤) تحريم موارد الكسب الخبيث .

(٥) تقريب الشقة بين مختلف الطبقات تقريباً يقضى على الثراء الفاحش والفقر المدقع .

---

(١) عيون الأخبار ، وشرح نهج البلاغة .

(٢) الاستعمار أحقاد وأطماع ـ للأستاذ الغزالى .

(٦) الضمان الاجتماعى لكل مواطن وتأمين حياته والعمل على راحته وإسعاده .

(٧) الحث على الإنفاق فى وجوه الخير وافتراض التكافل بين المواطنين ووجوب التعاون على البر والتقوى .

(٨) تقرير حرمة المال واحترام الملكية الخاصة مالم تتعارض مع المصلحة العامة . .

(٩) تنظيم المعاملات المالية بتشريع عادل رحيم والتدقيق فى شئون النقد .

(١٠) تقرير مسئولية الدولة فى حفظ هذا النظام »

* * *

وقد كان المجتمع الإسلامى الأول سعيداً كل السعادة لأنه لم يفهم الزكاة على أنها فلسفة مالية ، بل فهمها على أنها تطهير المال من الدنس وتطهير النفس من الكزازة والشح ، وتطهير للجماعة من الأنانية والأثرة فطبقوها تطبيقاً دقيقاً فسعدوا سعادة عظيمة . والمجتمع الطيب دائماً هو الذى يغلب فيه السخاء على الشح ، والإنفاق على الإمساك « ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون »[1] . « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض »[2] . وحتى فقراء

---

(١) التغابن (٢) البقرة

المجتمع الطيب نجد فيهم رقياً فى الروح وسمواً فى المشاعر « يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف »[1] .

. . . و إذا كان الإسلام يعد الملكية الصالحة من الأشياء الحلال فإنه يقف من الملكية الاحتكارية موقفاً صارماً ، بحيث لا يكون هناك أناس فى الأرض وأناس فى السماء؛ فأعطى الدولة السلطة فى انتزاع ماتشاء من الملكيات ، وفى أخذ ماتقضى به المصلحة العامة من الثروات لمواجهة النفقات الإضافية ولحماية المجتمع من الآفات الطارئة !! و بذلك كان نظام الملكية فى الإسلام أعدل من أى نظام وأمهر وأشمل .

أعدل لأنه لايمس الملكية الفردية إلا عند الاقتضاء . وأمهر لأنه يضمن بذل أقصى الطاقة من الأفراد فى الإنتاج . . وأشمل لأنه يعد الفرد للمجتمع و يعد المجتمع للأفراد .

* * *

ونظرة بسيطة إلى المواقف العمرية الخالدة التى وقفها مع سعد بن أبى وقاص حين افتتح العراق وسأله المسلمون عن قسمها . فكتب له :

« انظر ما أجلبوا به عليك فى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ليكون ذلك فى أعطيات المسلمين ، فإنا لو قسمناها لمن حضر ، لم يكن لمن بعدهم شىء » .

---

(١) البقرة .

تريبنا أن الفاروق أبى على طائفة ملك الأرض واحتكارها، ولو كانت الطائفة الفاتحة المحاربة المجاهدة!!

إن الأرض تبقى لا يمسها أحد، وخراجها هو الذى يوزع على المسلمين . . .

ولا يصح بحال أن يستأثر بها طبقة، ويحرم منها بقية الطبقات!!

ولقد تكرر هذا الموقف العمرى فى أرض السواد بالعراق وأرض مصر نفسها حين فتحها عمرو بن العاص!!

فلقد طلب الزبير من عمرو أن يقسم أرض مصر، فأبى وأوقف رده على استشارة الفاروق، فجاءه الرد الحاسم:

« دعها . . . يرثها قرن عن قرن، وتكون قوة لهم على أعدائهم »!

أى يجب أن تكون موقوفة على المسلمين عامة من غير تخصيص

وجاء فى كتاب الخراج، أن عبد الله بن قيس الهمذانى قال: « قدم عمر الجابية فأراد قسمة الأرض بين المسلمين، فقال له معاذ:

والله إذاً ليكونن ماتكره!.

إنك إن قسمتها صار الريع العظيم فى أيدى القوم، ثم يبيدون. فيصير بذلك إلى الرجل أو المرأة!

ثم يأتى من بعد ذلك قوم يسدون عن الإسلام مسداً، وهم لا يجدون شيئاً.!!

فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم » .

وبهذه المشورة نفسها أشار الإمام الأجل : على بن أبى طالب حين عرض الفاروق عليه مشورته . . .

* * *

وبذلك نرى حرصاً شديداً من أجلاء الصحابة على أن يكون هناك توازن فى اقتصاديات الأمة ، وتقارب بين الطبقات !!

وذكر الأستاذ الطنطاوى فى كتابه عن « الفاروق » ما يثبت أن سيدنا عمر تصرف فى بعض الملكيات حين رأى مصلحة تقتضى هذا التصرف !!

« فلقد كان بجيلة ـ وهى قبيلة ـ ربع الناس يوم القادسية ، فجعل لهم عمر ربع « السواد » بلد بالعراق .

فأخذوه سنتين أو ثلاثاً .

وفى يوم جاء جرير بن عبد الله البجلى فقال له الفاروق :

ياجرير :

لولا أنى قاسم مسئول لكنتم على ماجعل لكم ، وأرى الناس قد كثروا فأرى أن تردوه عليهم !

ففعل جرير ذلك !

فأجازه عمر بثمانين دينارا ..

ووفدت امرأة من بجلة يقال لها أم كرز ، فقالت لعمر :

يا أمير المؤمنين :

إن أبى هلك وسهمى فى السواد ، و إنى لم أسلم !

فقال لها يا أم كرز :

إن قومك قد صنعوا ماقد علمت !! أى من تسليم الأرض !

قالت :

إن كانوا قد صنعوا ماصنعوا ، فلست أسلم !! حتى تحملنى على ناقة ذلول ، عليها قطيفة حمراء ، وتملأ كفى ذهباً !!

ففعل عمر ذلك . !

* * *

وينقل لنا الزهرى « محضر الجلسة » التى كانت فى عهد عمر فيقول :

« استشار عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه فى السواد حين افتتح ؛ فرأى عامتهم أن يقسمها . وكان بلال بن رباح من أشدهم فى ذلك ، وكان رأى عمر رضى الله عنه أن يتركه ولا يقسمه !! فقال :

اللهم اكفنى بلالا وأصحابه ؟ .

ومكثوا فى ذلك يومين أو ثلاثة ! .

ثم قال عمر رضى الله تعالى عنه :

إنى قد وجدت حجة ! ! قال الله تعالى فى كتابه :

« وماأفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولاركاب ولـكن الله يسلط رسله على من يشاء ، والله على كل شيء قدير » .

حتى فرغ من شأن بنى النضير . فهذه عامة فى القرى كلها . .

ثم قال :

« ماأفاء اللهعلى رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل . كى لا يكون دولة بين الأغنيـاء منكم ، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهـاكم عنه فانتهوا . واتقوا الله إن الله شديد العقاب ! » .

ثم قال :

« للفقراء المهـاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاًمن الله ورضواناً ، وينصرونالله ورسوله ، أولئكهم الصادقون » !

ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم ، فقال :

« والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم . ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئكهم المفلحون » .

فهذا فيما بلغنا ، والله أعلم للأنصار خاصة ! .

ثم لم يرض حتى خلط بهم غيرهم فقال :

« والذين جاءوا من بعدهم يقولون : ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين

سبقونا بالإيمــان ؛ ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا . ربنا إنك رءوف رحيم » .

فـكانت هذه عامة لمن جاء من بعدهم ! ! .

فقد صار الفيء بين هؤلاء جميعاً ! ! .

فـكيف نقسم بين هؤلاء ، وندع من تخلف بعدهم من غير قسم ؟

فأجمع على تركه وجمع خراجه ! ! .

وفي رواية لأبي يوسف قال عمر : فإذا قسمت أرض الشام . بعلوجها ، وأرض العراق بعلوجها ، فما يسد الثغور ، وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وغيره من أهل الشام والعراق ؟ ؟ .

فأكثروا على عمر رضى الله تعالى عنه وقالوا :

أتقف ماأفاء الله علينا بأسيافنــا على قوم لم يحضروا ولم يشهدوا ، ولأبناء أبنائهم ولم يحضروا ؟ ! .

فـكان عمر رضى الله عنه لا يزيد على أن يقول « هذا رأيي . . »

قالوا : فاستشر . . .

فاستشار المهاجرين الأولين . فرأى على وعثمان وطلحة وابن عمر رضى الله عنهم رأى عمر .

ثم أرسل إلى عشرة من الأنصار ، خمسة من الأوس وخمسة من الخوارج ، من كبرائهم وأشرافهم ، فلما اجتمعوا حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال :

« إنى لم أزعجكم إلا أن تشتركوا فى أمانتى ، فيما حملت من أموركم . . فإنى واحد كأحدكم ، وأنتم اليوم تقرون بالحق . . . ولست أريد أن تتبعوا هذا الذي هو هواى . . .

معكم من الله كتاب ينطق بالحق . فو الله لئن كنت نطقت بأمر أريده ، فما أريد به إلا الحق .

فقالوا : قل نسمع ياأمير المؤمنين ! ! فقال . . .

رأيت أنه لم يبق شىء يفتح بعد أرض كسرى ؛ وقد غنّمنا الله أموالهم وأرضهم وعلوجهم . فقسمت ماغنموا من أموال بين أهله ، وأخرجت الخمس فوجهته على وجهه . وأنا فى توجيهه ! وقد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها وأضع عليهم فيها الخراج وفى رقابهم الجزية ! يؤدونها فتكون فيئاً للمسلمين المقاتلة والذرية لمن يأتى من بعدهم .

أرأيتم هذه الثغور ؟ لابد لها من رجال يلزمونها ! .

أرأيتم هذه المدن العظام ؟ كالشام والجزيرة والكوفة والبصرة ، ومصر ! لابد من أن تشحن بالجيش وإدرار العطاء عليهم ، فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟ . .

قالوا جميعاً :

الرأى رأيك ، فنعم ماقلت وما رأيت . .

والذى يقرأ كتب الأموال لأبى عبيد ، والخراج لأبى يوسف ،

والخراج لابن آدم ، ومقدمة تاريخ بغداد ، والأحكام السلطانية للماوردى ، وتاريخ الطبرى ، وغيرها ، يرى كثيراً من المواقف المشهودة التى وقفها عظماؤنا الأولون[1] فى العمل على محاربة الاحتكار وتقريب الفوارق ، والحث على السياسة المالية السليمة التى تبرأ من الفقر المدقع والثراء الفاحش ! .

* * *

إن كثيراً من الإقطاعيين الذين قلمنا أظفارهم ، وشذبنا ملكياتهم كانوا يخافون من ظل الإسلام ، وكانوا يبخلون بحق الفقراء .

فجاءتهم الثورة ، وقضت على أنانيتهم البغيضة ، وحيوانياتهم الطائشة . .

سئل أحد المترفين يوماً :

- لماذا تشرب المخدرات وهى ضارة بالصحة ؟ .

فقال : إن هذا الضرر يرتفع عند مائدة أبى . . .

يريد أن ما على المائدة من غذاء حرم منه الملايين . يقاوم ضرر المخدرات ، وضعف العربدة والمعر بدين ! ! .

ياترى كيف يحلمون اليوم وكيف يعيشون ؟ ! .

* * *

هذا هو التوازن الاقتصادى فى الإسلام !!

و بذلك نلاحظ أن النظام الرأسمالى الاستعمارى الاحتكارى ليس فيه أى توازن ؛ فهو عبارة عن استعباد أصحاب الثروات للأغلبية الساحقة من طوائف الأمة ، وخضوع أفراد الأمة لأغراض هذه الشرذمة المنكرة القليلة من الناس ؛ ! إذ أن الصناعات الأساسية فى أيديهم ، فيتصرفون فى الأجور كما يتصرف السيد فى الرقيق من غير معارض أو رقيب ؛ و بهذه الطريقة تتطور الأمور إلى أن يصبح مصير الأمة كلها الاقتصادى أولا والاجتماعى ثانياً فى قبضة هذه الطائفة المستغِلة التى ملكت المصانع والشركات والمزارع .

والنظام الرأسمالى يسير من تلقاء نفسه و بطبيعته إلى سياسة « التركُّز الثّروى » فى يد جماعة معينة ؛ وكذلك التركز الصناعى . و إذا تركزت الثروة والصناعة فى أيدى هذه الطائفة ، كان لا محل بعد ذلك للثروات الصغيرة ولا للصناعات الصغيرة ! وأصبحت بقية الطوائف فى حالة اضطهاد عام ، وأرزاق معلقة مهددة . فإذا ما نظرنا إلى الرأسمالية الفاحشة فى العالم الغربى وشاهدنا هنالك : كيف يرغم تجار الحروب وأصحاب المصانع الحربية المنتجة للسلاح ، السياسة الحكومية على السير قدماً نحو الحرب ، وعلى الاستمرار فى استعباد الشعوب الصغيرة ؛ علمنا مقدار آفات هذا النظام الاحتكارى البغيض . ولهذا فر الإسلام من النظام الرأسمالى وحار به بشدة ، وقاومه فى عنف !

وهذا النظام الرأسمالي الفاحش كان هو السائد في الأراضي الروسية قبل الثورة الماركسية . فلاحون يمثلون الطبقة العظمى في البلاد لا حقوق لهم ، وإقطاعيون قلائل يتحكمون في الأرزاق . وثار ماركس وزميله إنجلز ، على هذه الأوضاع ثورتهما التاريخية العنيفة التي أثبتت وجودها واحتلت مكانتها في قليل من السنين ! !

وإذا كانت الرأسمالية قد تطرفت من جانب الملكيات الخاصة الواسعة تطرفاً شنيعاً ، فإن الماركسية كذلك تطرفت أول الأمر في نزع الملكيات الخاصة وتحويلها إلى ملكيات عامة بحتة .

ولعل من الطريف هنا أن نعرف تاريخاً مبسطاً عن صاحب هذه الفلسفة الاقتصادية قبل أن نخوض غمارها . وأول مايلفت نظرنا أنه نبت من أصل يهودي ، فأبوه هرشل ، واليهود وصفهم القرآن « بأنهم أحرص الناس على حياة » ووصفهم الواقع بأنهم أشد الناس تمسكا بالدنيا وذهبها و « روبلاتها »[1] . ومع هذا فهو يحارب الملكيات ويدعو إلى إلغائها . وذلك يخالف الطبع اليهودي الكنود .

فياترى : ماهي العوامل الخفية التي انفعل بها وانفعلت به ؟ ؟

ربما كان أول عامل دفع « كارل ماركس » أنه كان فقيراً فقراً مدقعاً . وكان بائساً في حياته الأولى ، بل حتى تزوج وأنجب أولاداً .

وحديث الفقر عن صاحب المذهب قد تواتر على ألسنة من اتصلوا

---

(١) العملة الروسية .

به وعرفوه ، حتى أنهم ذكروا رسائل من زوجته إلى بعض أصدقائه تطلب منهم أن يمدوا إليهم يد المعونة العاجلة والإحسان المستعجل . والفقر ليس عيباً ، فكثير من الزعماء فقراء . . هذه حقيقة واقعة فعلا ولا حرج فيها .

وربما كان من العوامل التى أثرت على « كارل ماركس » ذبذبة شخصيته ، وعدم استقراره فى الحياة . هذه الذبذبة جعلته ينظر إلى الحياة من زاوية واحدة ، هى زاوية النقمة على الرأسمالية والرأسماليين ، والعمل على سحقهم من الوجود . وهذه الذبذبة أيضاً كان لها أثر كبير على عقيدة كارل ماركس ونظرته إلى الحياة والأديان نظرة سوداء قاتمة ؛ مما جعله يؤمن بنظرية « المادية الخالصة فى الدين والاجتماع والاقتصاد » وهذه اللمحة الخاطفة تنفعنا كثيراً فى فهم الفلسفة الماركسية الاقتصادية . فقوام هذه الفلسفة أو بعبارة أدق أيدلوجية هذه الفلسفة أن العالم بطبيعته مادى ، وأن الظواهر المتضاعفة للعالم تشتمل على أشكال مختلفة من المادة ، وأن ارتباط الظواهر واعتمادها بعضها على بعض هو قانون ارتقاء المادة . وكذلك الارتباط بين ظواهر الحياة الاجتماعية واعتماد بعضها على بعض هو قانون الارتقاء فى المجتمع . فتاريخ المجتمع ليس هو تراكم الأحداث ، ولكنه تاريخ الارتقاء الاجتماعى وفقاً للقوانين الرتيبة . و بناء على ذلك فإنه لا مكان للروح ، بل إن الفكرة والعقل والطبيعة والحياة كلها من إنتاج المادة . و بعبارة أخرى فإن مصدر

الحياة الروحية للمجتمع ومنشأ الأفكار والنظريات الاجتماعية والآراء والنظم السياسية والاقتصادية يجب البحث عنها لافى الآراء والأفكار والنظريات والنظم السياسية نفسها ، ولكن فى الحياة المادية للمجتمع فى الوجود الاجتماعى الذى تُعتبر الآراء والنظريات والأفكار والنظم انعكاساً لها .

والتاريخ كذلك فسرته الفلسفة الماركسية تفسيراً مادياً بحتا بمعنى أن جميع الحروب والثورات التى قامت : كانت بسبب المادة ولا غير . فكلومبوس حين اكتشف أمريكا اكتشفها بسبب رحلته إلى الهند للحصول على خيرات الشرق ، وغزوات التيتون والتتر لغرب أوربا كان مرجعها الأول إلى القحط والمجاعة . والإسكندر عند مافتح الإمبراطورية الفارسية فإنما فتحها لاستغلال خيراتها ونهب ثمراتها ، والحروب الصليبية قامت بسبب رغبة جنوا والبندقية فى حماية تجارتهما من العرب والأتراك . وثورة البيوريتان فى إنجلترا قامت احتجاجاً على الضرائب غير القانونية .

وكان سبب حرب ١٨١٢ الرغبة فى ضمان حرية التجارة المحايدة ، وكذلك الحرب العظمى الأولى كانت نزاعاً بين الدول المكتظة بالسكان الفقيرة فى الموارد ، و بين الدول الغنية بمستعمراتها .

وهذا التعليل يقال فى تفسير الفلسفة الماركسية للعلوم والقانون

والسياسة والدين والأخلاق ؛ فكلها عندهم انعكاسات للأحوال الاقتصادية ، والمصالح الطبقية ، وتمتد جذورها إلى الظروف المادية للحياة .

فالقوانين مثلا من إنشاء أصحاب المصلحة فى وضعها سواء الارستقراطية قديما ، أو البرجوازية والرأسمالية فى لوقت الحاضر . ولا شك أنها فلسفة متطرفة جداً فى الناحية المادية بسبب إرجاع كل شيء إليها . . .

* * *

وهذه الفلسفة المادية البحتة تعتبر مقدمة لمبدأ ماركس الخاص « الصراع الطبقى » الذى يعتبره الماركسيون نذير الثورة الاجتماعية . فماركس و إنجلز وأترابهما إذ يعرضون للثروات الجلوجية ، والظاهرات الجغرافية ومقومات الحياة من طعام وكساء ومأوى ، يعرضون لها بحسبانها أشياء تحرك الصراع بين الطبقات . و يقول ماركس وانجلز فى ذلك «إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات . إن الحر والعبد والنبيل والسوقة والسيد والرقيق و بكلمة شاملة المضطهِد والمضطهَد يتصارعان تارة خفية وطورا علنا صراعا ينتهى فى كل مرة بإعادة تشييد المجتمع بوجه عام أو بانهيار الطبقات المتنازعة جميعاً » .[1]

وقد ذكر كارل ماركس فى كتابه « رأس المال » ثلاثة أنواع من

الطبقات الاجتماعية هي : العمال الأجراء ، والرأسماليون ، وملاك الأرض وكلها لها دخلها المميز الذي يكسب أعضاءها مصلحة اقتصادية مشتركة تتعارض مع مصلحة الطبقتين الأخريين ، وهذا النزاع يقود بطبيعته إلى الأحقاد والبغضاء . ويطلق كارل ماركس وإنجلز : كلمة البرجوازية على ملاك وسائل الإنتاج الذين يعيشون على القيمة الفائضة بأشكالها الثلاثة : الريع ، الفائدة ، الربح ، أي أنها تشمل كبار ملاك الأرض والتجار وأرباب البنوك وكبار رجال الأعمال . وهذه البرجوازية عند ماركس تتسم بالرجعية ؛ أما البروليتاريا فيطلقها ماركس على الجمهرة العظيمة من الأجراء الذين يملكون شيئاً قليلا أو لا يملكون شيئاً ألبتة ؛ وقد أبعدوا عن وسائل الإنتاج وليس لديهم ما يبيعونه سوى قوة عملهم .

ويحرص المذهب الماركسي على انتصار الطبقة الفقيرة على الطبقة الرأسمالية ليتحقق المجتمع اللاطبقي وهو غاية الشيوعية .

ولو رجعنا إلى روسيا عام ١٩١٧ لوجدنا أنها كانت مركزاً للقيصرية. والقيصرية كانت تمثل نظاماً إقطاعياً وكانت في الوقت نفسه مستودعاً هائلا للاستعمار الغربي . فكانت تجمع من السكان الروس مبالغ طائلة تتسرب إلى الرأسماليين في باريس وبرلين وبروكسل . وذلك مادعا كارل ماركس إلى ثورته المعروفة . وكان قواد هذه الثورة

من الطبقة البروليتارية . ولقد نجحت هـــذه الثورة نجاحاً باهراً واكتسحت أمامها البروجوازية اكتساحاً ضخماً وأخذت تسعى إلى نشوء مجتمع لا طبقى ليصبح هناك اتحاد عظيم يجمع الأمة كلها . ولن تـكون فيه طبقات ولا اختلافات طبقية ولا اضطهاد طبقة لأخرى .

على هذا الأساس رسمت الفلسفة الماركسية كيانهـا الاقتصادى فينص الدستور السوفيتى على أن الأساس الاقتصادى للاتحاد السوفيتى هو النظام الاقتصادى الاشتراكى والملـكية الاشتراكية لوسائط الإنتاج ووسائلها ، وهما اللذان ثبتت دعامتهما بعـد استصفاء النظام الرأسمالى الاقتصادى وبعد إلغـاء الملـكية الخاصة لأدوات الانتاج ووسائله وإلغاء استغلال الإنسان للانسان ، كما عينت المادة السادسة أنواع ملـكية الدولة فهى تشمل « الأرض وما فى جوفها والميـاه والغابات والمصانع والمناجم والمعادن والسكك الحديدية والمواصلات المائيـة والجوية والمصارف ووسائل الاتصال والمشروعات الزراعيـة الـكبرى التابعة للدولة الخ » . فالدولة هناك إذاً تحتكر الصناعة والتجارة والزراعة وبذلك يتم تحويل وسائل الانتاج إلى الاشتراكية البحتة ؛ كما نادى بها كارل ماركس ، وبذلك يعتمد السكان هناك فى معاشهم على الدولة من طريق مباشر أو غير مباشر .

وهنا تختلف الفلسفة الماركسية عن الإسلام ؛ فالإسلام يقر الملكية الخاصة كما بينا فى حدود معقولة . كما يختلفان فى نقطة أخرى دقيقة جداً ؛ فالإنتاج عند الفلسفة الماركسية هو كل شىء ؛ هو المبدأ والمنتهى ؛ وهو أساس كل شىء ومرجعه ، وهو المقياس الوحيد الذى تقاس به الحضارات والفنون والآداب .[1]

قال الأستاذ العقاد

وسائل إنتاج .

وسائل إنتاج .

لا شىء أول ولا آخر غير وسائل الإنتاج ! ! .

دين . . وطنية . . علم . . فلسفة . . أدب . . فن . . أخلاق . . أسرة . . زواج . . رهبانية . .

كل هذا تبحث عنه فى وسائل الإنتاج ، ولا تبحث عنه فى شىء سوى وسائل الإنتاج ! .

إن الرجل الذى يفسر جميع الأمور بإرادة الله مفهوم من الوجهة العلمية ، لأنه يؤمن بأن الله هو السبب الأول لجميع الأسباب ، ولا مناقضة

---

(١) راجع فى ذلك بتوسع « الدستور السوفيتى » وهو كتاب يقع فى حوالى الأربعمائة صفحة للأستاذ فؤاد محمد شبل .

للعلم فى الرجوع بالأسباب طرًا إلى أصلها الأصيل .

أما الذى لانفهمه من الوجهة العلمية ، فهو وسائل الانتاج التى لاتفسر لنا شيئاً ، لأنها تفسر كل شىء بلا استثناء .

ولو كان من شأنها أن تفسر كل ماتدعى تفسيره لوقفت بنا فى منتصف الطريق حين تقول لنا مرة :

إن وسائل الإنتاج هى التى تنشىء الطبقة .

وتقول لنا مرة أخرى :

إن الطبقة هى التى تنشىء وسائل الإنتاج . .

وتقول لنا فى جميع المرات :

إن علاقات الإنتاج هى المهمة ، وليست هى الآلات ، والمخترعات والموارد والنفقات ! ! .

وأهزل السخف أن يقول قائل :

إن أصحاب الثروة هم الذين خلقوا الربيع وخلقوا جمال المرأة وخلقوا كنوز المناجم والبحار ، لأنهم يملكون المال ، أو يملكون وسائل الإنتاج . .

وأسخف من ذلك أن يقول قائل :

إنهم خلقوا الأديان والعقائد فى المجتمعات ، لأنهم يشترون فقر الأدعياء من المتدينين ! ! .

فإن محاسن الطبيعة والنساء لا تنكر الثروات الضخام ولا تحيطها بالريبة والوعيد . .

ولكن الأديان تنعى جميعاً على جشع الثروة ، وتستريب بمن يجمع منها مالاطاقة له بتحصيله ! .

ثم قال العقاد :

وقد أسلفنا أن الشريعة الموسوية قد شرعت لقوم من أحب خلق إلله للمادة ومتاعها ، فلم يكن فيها مايعزز قول القائلين أن الأغنياء يروّجون للعقائد فى المجتمع لتسويغ مطامعهم واستباحة مالايباح . .

ثم جاءت المسيحية على أثر الموسوية ، فكانت فى صميمها حملة على الثراء ، أوثورة على ملكوت الأرض من أجل ملكوت السماء .. وآيتها أن دخول الجمل فى سَمّ الخياط ، أيسر من دخول الغنى إلى ملكوت السماء . .

والإسلام لم يدخر وسعاً فى تبيين نظريته الخالدة :

الإنسان مادة وروح .

ولا يطغى جانب على جانب .

« خذوا من آخرتكم لدنياكم ، ومن دنياكم لآخرتكم » .

« اعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً ، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا . . »

« إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم فقراء يتكففون الناس . . » اهـ

* * *

فأين نظرية الإنتاج من نظريات هذه الأديان ؟ ؟

إنها تقلب الحياة دخاناً ، والناس آلات ؛ والمجتمع حركة دائبة ، لا سكون فيه ولا انسجام . .

ولئن أخذنا على « نظرية الإنتاج » أنهـا نظرة مادية بحتة لا مكان للروح بجوارها ، ولا أساس لغير المادة فى ميزانها .

فإننا نحارب فى الوقت نفسه بكل شدة .. نظرة التراخى والكسل، والخمول والبطالة .

فإن الإسلام يحارب الأولى ، ولا يرضى عن الثانية ! !

فالفقر أعدى أعداء المسلم . .

وعلى المسلم أن يسعى ليملك السيارة والتليفون والعمارة . .

ولقد شرح أبو ذر ـ الداعى إلى الاشتراكية المعتـدلة المتدينة ـ كيف ينظر الإسلام إلى الفقر فقال :

« إذا ذهب الفقر إلى بلد قال له الكفر : خذنى معك » .

وهناك فرق كبير بين أن ترضى بالمقسوم وأن ترضى بالذلة ! . .

إن الرضا بالمقسوم معناه : لاتكن ضجراً ولا شاكياً ، وابحث عن أسباب السعة فى هدوء وجد ، ونشاط وحيوية ! !

أما القناعة بالذلة فيأباها الإسلام فى العمل وفى الحياة . .

* * *

وهناك فرق آخر بين خلق الانتاج وخلق الإسلام !

فخلق الإنتاج الماركسى لا يعترف :

بالكرم الخالص ، ولا بالمواساة الإنسانية ، ولا بالرحم الموصول ، ولا بالعطف الرحيم ، ولا بالإحسان المتبادل ، ولا بالمروءة المبذولة ، ولا بالسخاء الواسع ، ولا بالشعور الرقيق ، ولا بالمواقف الخالدة التى تنشأ من الأحداث .

لأن لغته :

« من عمل أكل ؛ ومن لا يعمل لايأكل » .

« كل إنسان يجب أن يعمل على قدر طاقته ؛ فليس فى طاقته إمكانية لغير العمل »

« المصنع هو الحديقة ، وهو الحياة ، وهو الجمال ، وهو كل شىء»

فأما من شاء لهم القدر أن يعجزوا أو يضعفوا عن العمل ، فقد

يجدون لقمة ، وقد يجدون خرقة ، وقد يجدون علاجا ، ولـكن بعد أن يشعروا أنهم ملقون فى « سلة المهملات » .

أما خلق الإسلام :

فهو الرحمة المبذولة ، والمروءة الواسعة ، والإنسانية الرحبة الفسيحة .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ابغونى فى ضعفائكم ؛ إنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم » .

« اللهم أحينى مسكيناً ، وأمتنى مسكيناً ، واحشرنى فى زمرة المساكين » .

روحانية واشراق

كانت الفلسفة الماركسية مظلمة معتمة ، لأنها اتصلت بالمادة فى صغير شئونها وجليلها ، وستظل كذلك مادامت لاصقة بهذه النظرية المحدودة الأفق الضيقة الباع ، حتى المرأة التى تحيا على العواطف ، وتتغذى من الشعور بالجمال ، لا تجد عواطفها ولا مشاعرها فى الفلسفة الماركسية مكاناً ولا ظلالا ! إنهـا تجد السوط الذى يدفعها إلى العمل ، ويحثها على الكفاح فى غير لين وهوادة . وقد تفرح المرأة أول الأمر ، ولكن تغضين الجباه ، وتصلب العظام يجعلها تفر حين ولا يمكنها الفرار ، وتستغيث حين لا تجد مغيثا .

أما الإسلام ، فما أجمل نظراته إلى الحياة . . ينظر إلى الرجل النظرة التى تليق به ، وينظر إلى المرأة النظرة التى تلائمها ، وينظر إلى المصنع نظرة فيها سداد واهتمام . . . يعترف بالمادة ولكن لا يقدسها ، ويميل إلى الروحانية ، ولكن ليست الروحانية الانفرادية البغيضة التى تجعل الإنسان يحيا فى محيط نفسه ، ودائرة أنانيته ، حدوده ذاته ، وأركانه غاياته ، لا يعرف غير ذلك ، ولا يميل إلى سواه . . .

إن الإسلام يبرأ من هذه الروحانية ؛ إن سميت روحانية . كما يبرأ الإسلام من هذه الدروشة الصوفية التى تجعل المسلم يعتقد أن الزهد هو

لُبس المرقّع ، وترك الطيبات ، والجمود أمام جمال الحياة ، وحبس النفس عن جميع المباحات . . . إن رسول الله صلى الله عليه وسلم حدد لنا معنى الزهد إذ يقول : « أما إنه ماهو بتحريم الحلال ، ولا إضاعة المال ، ولكن الزهد فى الدنيا أن تكون بما فى يد الله أغنى منك بما فى يدك » . وسئل الزهرى : « ما الزهد ؟ قال أما إنه ليس تشعيث اللمّة ، ولا تقشف الهيئة ، ولكنه صرف النفس عن الشهوة » .

كل هذه المعانى تجعلنا ندقق فى فهم روحانية الإسلام السليمة . إنها إفاضة على القلب ، وطمأنينة للجوارح ، ونظرة واقعية للحياة ، لا مغالطة فيها ولا خداع ، إنها وسط بين الجنون المادى ، والخمول الانعزالى . و بقدر هذه المرونة ، بقدر ماسيعيش الإسلام محاربا لكل تفريط ، منتصراً على أى مذهب مادى و إن كتب له أن يشيع وأن يذيع .

قال الأستاذ البهى الخولى فى تذكرة الدعاة :

« إن الدنيا فى منطق الفطرة دار بلاغ ، ولكن تعلق عواطف القلب بها جعلها فى نظر أكثر الناس دار متاع . والفرق شاسع بين البلاغ والمتاع . فمن اتخذها بلاغاً فقد جعلها وسيلة يبلغ عليها مايريد من ربه لحياة قلبه ، ومن اتخذها متاعاً فقد جعلها غاية يدور حولها برغبات قلبه وهمة نفسه ، وأهواء غرائزه ، أى أنه يحشد قواه كلها لدنياه ، و يجرد حياته الأخرى من كل قوة تسعى فى عمارتها .

والخط الفاصل بين البلاغ والمتاع هو الحد الذى يجب أن تقام عنده الحواجز بين حياة المادة وحيــاة الروح ، ليسعى البدن فى محيطه آمناً كل تدخل يغير عليــه نظام بلاغه وكفايته ، ويسعى القلب فى محيطه معلقاً بمشاعره فى ملـكوت الله ، مفيضاً على كيانه الحقيقى رداء من النور ، وشراباً من ماء الحياة الطهور . . . فاعمــل فى دنياك واجمع المال ، ولــكن لا يلهينك شىء من هذا عن حياتك الأخرى ؛ لا يكن غرضك من جمع الحطام أن تــكتنز الذهب والفضة ، أو تكاثر به بين الناس ، فهذه همة السفهاء الفارغين ، وهى الفتنة التى تدخل على القلوب عبادة المال من دون الله . « إنما أموالـكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم »[1] « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالـكم ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون »[2] بهــذا يثبت الإنسان وجوده فى الحياتين ، ويؤدى رسالته فى الناحيتين ، ويحقق معنى الزهد الذى تقاصرت عنه همم العاجزين من عبّاد الشهوات ، وهو زينة الإنسانية ونظامها الـكامل . . . ونحن نتساءل : ما موقف القلب حيال هذه الدنيا التى يصفها رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها حلوة خضرة ؟ لو أن الإنسان ميكانيكى التركيب لجعل لبدنه زرًّا خاصاً يدير أعضاءه ، ولقلبه زراً آخر يديره فى جهة أخرى فيســتريح ويريح . . .

---

(١) سورة التغابن . (٢) سورة المنافقون .

ولـكن الإنسان كائن حيّ . والحياة سر مستفيض لا يضبط بقيود المادة وسدودها . فما موقف القلب وهو مركز الحياة ومعين القوى أمام زهرة الدنيا وشهواتها ؟ أنتجاهل غرامه وأشواقه ، أم ننزل على حـكم الأمر الواقع ؟ ؟ .

لو أن القلب كان مركز المنطق وعدة التنظيم كما هو مركز الحياة ومعين القوى لنظم نفسه بنفسه ، فأخضع قواه الهائلة لمنطقه ، وسيرها فى اتجـاه المبادىء التى يستحسنها ، ولكان للإنسانية شأن غير هذا الشأن . ولـكن الله سبحانه قضى أن يكون مركز التنظيم بعيداً عن القلب ، متخذاً برج قيادته فى قمة الجمجمة ؛ فالقلب مرجل البخار فى قاطرة الإنسان ، والعقل المنطقى قائدها . فإذا كانت المبادئ التى آمن بها المنطق هى التى يسرى رحيقها فى القلب ، فاعلم أن السائق آخذ بزمام قاطرته ، مهيمن على توجيه قواها إلى مايشاء . أما إذا آمن العقل بمبادىء ، وأشرب القلب مبادىء غيرها فاعلم أن قبضة السائق منحلة عن عجلة القيادة وأن القاطرة تمشى من غير عينين ، وأن صاحبها ينطلق مع هواه بلا قيد ولا شرط ، وهذا شأن أكثر الناس فى هذه الحياة . . .

لقد ضرب الباطل على أقطار هذه الـكرة الأرضية فقاعة هائلة من الوهم ، فهى تغشى قلوب الناس وعقولهم جميعاً إلا من عصم الله وقليل ماهم . فهم على بريقها يسيرون ، وبوحى خداعها يعملون . أوهمتهم أن الحياة

طعام وشراب ، وأيام تأتى بالمساءة والإحسان والعطاء والحرمان ، فما على المرء إلا أن يجد ويكد ويتسلح وينافس ، فيحصل المال ويجمع الحطام ، وأن يفر جهده من الفقر ، وأن يستمسك جهده بأسباب الغنى ، وأن يجعل أيامه أيام سرور إن قدر ، وأن يدفع عن نفسه ما لا يشتهى إن استطاع فرسالته تتخلص فى أنه جاء هذه الأرض ليأكل ويشرب ويتناسل ثم يموت ؟ ثم يختم الفناء الأصم قصته إلى الأبد .

هذه هى الفقاعة التى ضربت أطنابها على الأرض ، فاغتر الناس ببريقها ، ومضوا فى غفلة مع وهمها وسرابها ، فتبع اللاحق منهم السابق ، ويأتى الخلف منهم على أثر السلف ، ويتصل بهم موكب الخليقة كالقطيع التائه السارح إلى غير غاية لا يتساءلون : ما هذه الحياة ، ولا لماذا نحن هنا ، وأين كنا ، وإلى أين نصير ؟ إنما هى أرحام تدفع ، وقبور تبلع ، وبطون بينهما لا تشبع ، وليس وراء ذلك حكمة ولا غاية .

هكذا تقول الفقاعة ؟ لا ثم لا ، إن حكمة الله جل شأنه أجل من أن تتعلق بهذه الغاية ، وأن تخلق من أجل هذا العبث ذبابة واحدة فضلا عن هذا العالم الرائع الجليل » « وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين ، ما خلقناهما إلا بالحق ، ولكن أكثرهم لا يعلمون »(١)

* * *

(١) سورة الدخان

إن الفلسفات المادية لا تقدر إلا الغريزة ، وليست هى كل شىء فى الإنسان ! ! إن كلمة « الإنسان » كلمة سامية جميلة ، وشتان بين جمال الإنسانية ، وغرائز الحيوانية. ولكن العقل إذا ضل ، أصبح بينه و بين هذا الجمال الروحانى حجب كثاف ، ومواد جسام .

وخطر الأخطار أن تزعم هذه الفلسفة أنها دين الناس ، وأنها فردوسهم المعظم ، ثم تجد بعد ذلك أتباعاً وأشياعاً ، بها يدينون ، ولها يتبعون . وأخوف مايخاف العاقل على البشرية اليوم ، طيشان الغريزة ، واستبداد الهوى . فلا لجام يكبح هذا الاستبداد ، ولا دين عند العظماء الأقوياء ، أو مايسمونهم « الأقطاب » يرجعهم عن غيهم وضلالهم .

ما أحوج الدول الكبرى اليوم إلى أن تستمع إلى صوت السلام صادراً من الإسلام ، ونابعاً من الشعوب المؤمنة بربها ، المخلصة لدينها . فتريح أنفسها ، وتريح العالم من القلق المزعج ، والخوف المميت . . .

إن المادية الرأسمالية أو المادية الماركسية لاتلتقى مع الإسلام ولايلتقى معها الإسلام ؛ لأن كليهما قد طاش سهمه ، واستبد به هواه . أما الإسلام فقد وزنه ربه ، وعدّله مولاه .

الإحساس الخلقى

والتكافل الإجتماعى

كثير من الأفراد وكثير من الأمم عندهم حاسة مادية حساسة . أما حاستهم الأخلاقية فهى ضعيفة وضعيفة جداً، حتى إن بعض المذاهب أمات هذه الحاسة الأخلاقية و بنى الحياة كلها على مذهب المنفعة . فأما الإسلام فقد اعتبر الحاسة الأخلاقية عنصراً أصيلاً فى فطرة الفرد وعنصراً أصيلاً فى أعماق الأمة . وماوظيفة الدين إلا تنظيم هذه العناصر وتوجيهها الوجهة الصادقة . وما وظيفة المجتمع إلا حراسة هذه القوانين الأخلاقية وحمايتها ، و بذلك تصبح القيم الأخلاقية فى نظر الإسلام هى الأساس الأول الذى يجب أن يسبق التكافل الاجتماعى .

فإذا كان التكافل الاجتماعى عملاً إيجابياً فى محيط المجتمع فإنه لا يتحقق إلا إذا سبقه شعور دافع فى عالم الضمير ، وسلوك واقع فى حياة الجماعة . والتربية الخلقية الصحيحة هى وحدها التى تتكفل بإيقاظ ذلك الشعور وتحقيق هذا السلوك .

و إذا كان من صالح الأمة أن تحيا مشاعرها و يتحسن حالها فالتربية الخلقية الصحيحة هى المنوطة بتحقيق هذا كله فى الحقيقة .

على هذا قامت نظم المجتمع الإسلامى كلها وتقاليده الشعبية الرائعة فنظام الزكاة ونظام الميراث ونظام الوقف الخيرى ونظام الجهاد ونظام

المعاملات الاقتصادية غير الربوية ونظام البر والإحسان وحماية الضعيف ونظام النجدة والفتوة ؟ كل ذلك تقاليد ونظم تقوم على أساس التكافل الاجتماعى الصحيح « لقد بدأ الإسلام بناء المجتمع فى ضمائر الأفراد ووجداناتهم . فهناك فى أعماق الروح غرس بذرة الحب ونسم نسمة الرحمة ، الحب الإنسانى الخالص والرحمة الإنسانية المبرأة . لقد رد الناس إلى ذكرى نشأتهم الأولى من نفس واحدة وأيقظ فى وجدانهم شعور النسب والقربى ، وذكرهم أخوتهم فى الله وفى المنشأ والمصير . حتى إذا رقت جوانحهم بهذه المشاعر اللطيفة كانوا أقرب إلى التعاون وأدنى إلى الوفاء . . .

إن الخط الرئيسى فى أية محاولة للتربيــة الخلقية ينبغى أن يكون هو ربط الضمير الإنسـانى بأفق أعلى من الذات المحدودة ، والمصلحة القريبة ، أفق يستعذب التضحية فى سبيله ، ويستسهل الصعب فى الارتقاء إليـه . . . ذلك هو ربط ضمير الفرد بالله خالق الأكوان ، وخالق الأوطان ، وخالق الإنسان ليبذل مايبذل ابتغاء مرضاة الله ولو لم يكرّمه إنسان ؛ وليكون الحب فى الله هو الذى يجمع القلوب ، ويشبك الأيدى ، ويلفّ السواعد . وعندئذ تتحقق الصورة الوضيئة التى رسمها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول « إن من عباد الله أناساً ماهم بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء يوم القيامة لمكانهم من الله تعالى قالوا يا رسول الله : أخبرنا من هم ! قال : هم قوم تحابوا بروح الله

على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها . فوالله إن وجوههم لنور ، وإنهم لعلى نور، لايخافون إذا خاف النـاس ، ولا يحزنون إذا حزن الناس » .

إن ارتباط الضمير الإنسـانى بالله هو الخطُّ الأول فى أى تربية خلقية ناجحة عميقة الجذور . وهذا يقضى أن تتخذ العقيدة الدينية قاعدة أساسية للتربية الفردية أو الاجتماعية فى سبيل تكافل اجتماعى لايحقق مصلحة اجتماعية فحسب ، ولا مصلحة قومية فحسب ، بل كذلك يحقق غاية إنسانية أبعد، تتسم بالرغبة فى إرضاء الله وحده ، والتضحية بالغالى والرخيص ابتغاء وجهه الـكريم .

وسنجد الأديان السائدة فى البلاد العربية كلها فى عوننا . وليس الإسلام وحده حين نعتزم أن نجعل العقيدة الدينية أساساً للتربية الخلقية فى سبيل تحقيق تكافل اجتماعى ناجح فى هذه الرقعة من الأرض .

وعند ما يستقيم لنا هـذا الخط الأساسىّ الأول ، حين نربط ضمير الفرد بإلهه ، ونربط سلوكه بتقوى الله ورجائه . حينئذ سيسهل علينا أن نغرس فى هذا الضمير كافة المشاعر التى يقوم عليها التكافل الاجتماعى ، وأن نقود الفرد إلى سلوك اجتماعى يؤدى تلك الغاية . فإذا جاء التشريع بعد ذلك ليقيم الأساس العملى للتكافل الاجتماعى وجد طريقه إلى النفس الإنسانية مفتوحاً ، ووجد طريقه فى الحياة الاجتماعية الواقعية ممهداً .

أما الخطوط الفرعية فى محاولة التربية الخلقية فهي كثيرة ، ولـكنها

كلها ينبغى أن ترجع إلى ذلك الخط الأساسى . إن هذه الخطوط يجب أن تتجه إلى تكوين عادات اجتماعية معينة عن طريق الإيحاء والقدوة والسلوك العملى . فالعادة ضرورية لتثبيت الاتجاه الشعورى . وفى بعض الأحيان تكون هى الوسيلة المضمونة الوحيدة لتحقيق هذه التربية الخلقية .

فمثلا ندرّب الأفراد ـ سواء فى المدرسة أو فى النادى أو فى المعسكر أو أية تشكيلة اجتماعية ، على العمل المشترك ، بكل مايتطلبه من رغبة فى التعاون ، ومن مشاركة وجدانية ، ومن تسامح ومراعاة لمشاعر الآخرين ، ومن تقبّل للرأى المخالف ، ومن تضحية بالظهور الفردى ، رغبة فى إنجاح العمل الجماعى ، ومن تقسيم للعمل ، وتنظيم لأجزائه ، ونظام فى أدائه . وكل هذه صفات أو عادات لاتكتسب بمجرد التوجيه النظرى ، بل لابد فيها من المرانة العملية حتى يستحيل الشعور الداخلى بها سلوكا واقعياً فى الخارج .

كذلك عادة الاهتمام بالآخرين وأحوالهم وهمومهم ومشكلاتهم . وأسميها « عادة » و إن كانت فى أصلها « شعوراً » وأقصد بها تنظيم هذا الشعور وتوجيهه وتهذيبه وتفريغه فى صورة عملية تتخذ شكل العادة الثابتة فى حياة الفرد . . فلا ينحرف فيصبح مجرد فضول أو تجسس لتلبية حب الاستطلاع الفطرى ، ولا يتبخر فى صورة انفعالات

خيرة أو شريرة ، وينتهى . . . بل يهذب فيصبح اهتماماً خيراً بآلام الآخرين ومشكلاتهم ، ثم يوجه إلى التعاون معهم ومعاونتهم ، ثم ينظم فيأخذ هذا التعاون شكلا جماعياً ينتهى إلى التكافل .

و بالمثل تحول مشاعر الإيثار والتضحية التى يوقظها الشعور الدينى والتوجيه التربوى . . تحول إلى حركات تفرغ فيها هـذه المشاعر ، أو بتعبير آخر إلى أعمال ذات صفة منظمة ، يؤديها الفرد حتى تستحيل إلى مايشبه العادة »[1] .

وهنا نحب أن نشير إلى أن ذلك النظام الذى ندعو إليه يجب أن يأخذ طابع الشعور ، وأن يتسم بسيما الإحساس .

إن الإنسان يجب أن يحسن عن حب للإحسان ، وأن يساعد لرغبة فى المساعدة . وذلك هو الفرق بين إحسان الرجل الشرقى والرجل الأوربى . إن إحسان الشرقى مصحوب بعاطفة جياشة ، أما إحسان الغربى فهو مطلق معونة يقدمها بأى شكل وعلى أى حال .

فلا نحب أن المتبرع مثلا يتبرع للعمل الاجتماعى كما يأكل و يشرب و يقطع طريقه اليومى . ولكنه يحاول أن يشعر و يحس بآلام من تبرع لهم ، و يحس بالآصرة الإنسانية التى تجمعه بهم . فليس الإحسان مجرد

---

(١) دراسات إسلامية .

عادة وعرف اجتماعى ! إننا فى هذه الحالة نكسب العون العملى حقاً، ولكننا نخسر التعاطف الإنسانى وهو أجمل وأعلى وأرحم . إننا لانحب أن تتبخر المشاعر الإنسانية فى صورة انفعالات، ثم ينتهى الأمر.

ولكننا نحرص كذلك على أن يظل الإنسان إنساناً، وأن ترتقى مشاعره وترهف، كلما أدى عملا خيراً . إن عمل الخير يجب أن يظل عنصر تهذيب لفاعله ولا يفقد هذا الطابع، بجوار مايحققه من نفع عملى لمن يوجه إليه، وإلا فقد يشطر الخير الذى يمكن أن يحققه .

إن نظام التكافل الاجتماعى جُعل لتربية روح الفرد وضميره وشخصيته، وسلوكه الاجتماعى، وليكون نظاماً لتكوين الأسر وتنظيمها وتكافلها، وليكون نظاماً للعلاقات الاجتماعية وليكون فى النهاية نظاماً للمعاملات المالية، والعلاقات الاقتصادية التى تسود المجتمع الإسلامى .

إن على الفرد المسلم أن يتكافل مع نفسه فيزكيها ويطهرها ويكفها عن شهواتها ويقف لها بالمرصاد كلما غفلت أو انحرفت، ويقف منها موقف الرقيب والكفيل، يحببها فى الخير ويصدها عن الشر . فإذا صلحت نفس الفرد تهيأ بعد ذلك لأن يتكافل مع أسرته فى عالمها الصغير ويقيمها على أسس تربوية دقيقة . فإذا سلمت هذه الأسرة فى

بيتها وفى محيطها سلم النشء كذلك حسياً وعقلياً وروحياً ، وتم إعداده للحياة إعداداً صحيحاً على أحدث طراز؛ وعندئذ يكون المجتمع مكوناً من أسر فهمت رسالتها فى الحياة . فالأم تربى ولدها وبنتها تربية سليمة ، والأب يشرف إشرافاً اجتماعياً دقيقاً . والإسلام لا يعتبر القيام بهذه الواجبات تكافلا اقتصادياً فقط . وإنما يعتبره ضرورة بيولوجية ونفسية ؛ لأن تكوين الشخصية فى محيط أسرة معينة خير ألف مرة من الطفل الذى تتوزع تربيته على أسر مختلفة أو فى حضانات متعددة . فلقد أثبتت التربية الحديثة أن الطفل الذى يشرف عليه أكثر من امرأة تتفكك شخصيته ويختل توازنه . فالإسلام حينما جعل الأسرة قاعدة نظامه الاجتماعى ، وجعل التكافل بكل معانيه قانوناً لهذه الأسرة ، كان يضع للتكافل الاجتماعى الأساس الصحيح المتفق مع الفطرة البشرية المحقق لأقصى ما فيها من استعداد للخير والكمال . . . ثم ننتقل من محضن الأسرة إلى محيط الجماعة حيث نجد التكافل الاجتماعى يشمل كل العلاقات الاجتماعية ولا يقف فقط عند حدود المال . . . فهو تكافل فى كل علاقات الحياة الأخرى . . وتكافل فى حماية المجتمع من الشر والرذيلة والفاحشة والفساد .

وعلى كل فرد دور فى هذه الحماية « من رأى منكم منكراً فليغيره

بيده ، فمن لم يستطع فبلسانه ، ومن لم يستطع فبقلبه . وهو أضعف الإيمان » .

ومن ثَمَّ فهو نظام حياة شامل لا نظام إحسان و بر وصدقة فقط كما يتبادر كثيراً إلى الأذهان . ولقد حقق الإسلام بهذا النظام مجتمعاً متكافلا لم تعرفه البشرية من قبل ، وما تزال تتطلع إلى تحقيق مثله حتى الآن .

الشريعة العالية الناضجة ! !

لا يعرف الإسلام الكسل والخمول . . والإنسان الكسول الخامل يفتش له عن دين يأويه غير دين الإسلام ! ! .

إن نبى الإسلام شرع فى تكوين السوق المسلمة فى المدينة عقب الفراغ من المسجد ! .

فبعد أن رحل إلى المدينة وجد فيها سوقا « فى بنى قينقاع » مبنية على قواعد التعامل اليهودى ، وهى قواعد لا يرضاها الإسلام ، فجاء الرسول ونصب خياماً هناك ، وأعلن :

« افتتاح السوق المسلمة »

بعد أن أعلن :

« افتتاح المسجد النبوى »

وقامت السوق وشاعت فيها الحركة والنشاط ، وأخذ المسلمون يعملون فى التجارة بيعاً وشراء ! .

وذلك أول تحقيق لركن « العمل فى الإسلام » ومضى على ذلك رسول الله وصحابته حتى قال عمر : « مامن موضع يأتينى فيه الموت بعد الشهادة فى سبيل الله ، أحب إلىّ من موطن أتسوق فيه لأهلى ، أبيع وأشترى » .

فالإسلام شديد الحرص على مجاراة سنن الحياة والتمشى مع قوانينها . ومن قوانين الحيـاة الحركة والنشاط ؛ والسعى والعمل ؛ . . فأمر بالعمل وحث عليه ودعا إليه فى إلحـاح « هو الذى جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا فى منا كبها ، وكلوا من رزقه و إليه النشور[1] » .

و يلفت النظر فى هذا الأمر الإلهى التعبير « بالمنا كب » فليس المراد إذاً مجرد سير ، أو أى مشى ، و إنما هو أمر ببذل أقصى الجهد « لأن منا كب الأرض هى آفاقها الواسعة ، وفجاجها البعيدة ، وأقطارها المترامية الأطراف » .

وكان هذا الأمر الإلهى مصحوباً ببشـارة أن الأرض ذلول لمن أراد السعى والبحث والتنقيب ، ميسرة ممهدة ، وما على الإنسان إلا أن يسعى ، والله المعين والغالب على أمره ! ! .

وليست أوامر الإسلام واقفة عند هذه الآية فقط ، بل إن هناك رصيداً كبيراً من آيات أخر ، فيها حث على السعى والعمل .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون »[2] .

« فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض ، وابتغوا من فضل الله[3] » .

---

(١) سورة الملك .

(٢) التوبة (٣) الجمعة .

« هو الذى أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها » .

* * *

ويمر شاب على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان جالساً مع أصحابه فيتهامس الجالسون : لو كان هذا الشاب فى سبيل الله !

فيعلن رسول الله :

« لا تقولوا هذا : فإنه إن كان يسعى على أبوين ضعيفين أو ذرية ضعاف ليغنيهم ويكفيهم فهو فى سبيل الله » .

فالعمل فى الإسلام هو الضريبة الواجبة على الإنسان يقدمها طوعاً أو كرها ، لأنه يكره العالة والحاجة ، والمسكنة والذلة .

« وللعامل[1] مكانة كبيرة فى الأمة المسلمة ؛ فهو دعامة الإنتاج » وعنصر من عناصر الاقتصاد ، واليد المحركة لمرافق الدولة .

وتتجلى عناية الشريعة الإسلامية بالعامل وحقوقه ، فى كثير من مسائل التشريع ومنها :

(١) حفظ كرامة العامل وإنسانيته وشخصيته فى الحياة ؛ فالعمل ليس ذلا وهواناً ؛ بل هو وسيلة الحياة الشريفة لكثير من أفراد الأمة وهو ركن الحياة الاقتصادية . فلا يصح أن يوضع العامل موضع الذليل

---

(١) من كتاب « فى ظلال الإسلام » .

أو المسخر أو المهان . ولقد كان العامل المسلم لا يستأجر حتى يشترط لنفسه مايشاء . .

استأجر قوم أعرابيًا ليدلهم على الطريق ، فقال لهم : « يدى مع أيديكم فى كل ماتتناولون وتعملون وذكر والدى عليكم محرم » .

(٢) تقدير مجهود العامل تقديراً قائماً على الإنصاف وعلى الحدب عليه فلا يجوز لأصحاب الأعمال استغلال العامل بأى حال . ولذلك منعت الشريعة الإسلامية كثيراً من المعاملات التى لا يتحقق فيها ضمان العامل لأجره عند عقد العمل .

(٣) عدم إرهاق العامل وإعناته فى العمل ، وفى الحديث « ولا تكلفوهم مالا يطيقون ، فإن كلفتموهم فأعينوهم » وجعل الشارع للعامل — حين العسف والإعنات — حق فسخ العقد ، ورفع الأمر إلى المسئولين .

(٤) حرية العامل فيما وكل إليه من أعمال ، لأن المستثمر مادام مأنوساً فيه الكفاية والمقدرة على الاستثمار فلا يصح أن تقيد مواهبه ، لأن التقييد يكون معطلا لمواهبه الاقتصادية فى الربح .

(٥) دعوة الأغنياء الذين لايقدرون على استثمار أموالهم إلى إعطائها القادرين على ذلك ممن ليس لهم مال ، وذلك للقضاء على مشكلات البطالة . . . ومن هذه التشريعات المزارعة والمساقاة وسواهما .

(٦) العامل ليس ضامناً للمال إذا هلك في يده بدون تعدٍّ منه أو تقصير في حفظه . . . أما إذا هلك بتعديه فعليه الضمان وهو مسئول . وإذا شرط رب المال على العامل ضماناً في حالة عدم التعدي أو التقصير ، كان عقد العمل فاسداً .

(٧) للعامل فسخ العقد في أمور كثيرة كحالة المرض ، أو اشتراط رب المال شروطاً ترهقه وتضنيه ، أو أن يخل رب المال بشرط من الشروط . . . وهكذا .

(٨) للعامل الحق في أخذ التعويض من رب المال إذا تعدى عليه وأتلف عضواً من أعضائه .

(٩) ليس لرب المال أن يقصي العامل عن عمله إذا نقصت مقدرته على الإنتاج بمرض لحقه من جراء العمل أو بسبب هرم أو شيخوخة .

(١٠) حق العامل في الراحة الأسبوعية . ففي الفقه الإسلامي : لو استأجر رجل يهودياً شهراً كاملا كانت أيام السبوت مستثناة من العمل . . وكذلك إذا كان نصرانيا فراحته الأحد . والمسلم أولى » . .

وهكذا يعد الإسلام العمل والعامل سر سعادة الأمة ، والأعمال يكمل بعضها بعضاً . ولقد جعل الرسول الأعظم من يسعى على نفسه ليكفها عن المسألة مجاهداً في سبيل الله كما ذكرنا

ولقد قص القرآن علينا كيف خدم موسى بن عمران شيخاً كبيراً

ثمانى حجج أو عشراً . . . وقبل موسى وأدى ماطلب منه خير أداء ، وتتولى سورة القصص سرد هذه القصة بالتفصيل .

« ولما ورد ماء مدين وجد عليه أمة من النـاس يسقون ، ووجد من دونهم امرأتين تزودان ! قال ماخطبـكما ؟ قالتا : لا نسقى حتى يصدر الرعاء وأبونا شيخ كبير. فسقى لهما ثم تولى إلى الظل فقال : رب إنى لما أنزلت إلىّ من خير فقير ، فجاءته إحداهما تمشى على استحياء ، قالت: إن أبى يدعوك ليجزيك أجر ماسقيت لنـا ، فلما جاءه وقص عليه القصص ، قال لاتخف ، نجوت من القوم الظالمين ؛ قالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ؛ قال : إنى أريد أن أنـكحك إحـدى ابنتى هاتين على أن تأجرنى ثمانى حجج ، فإن أتممت عشراً فمن عندك ، وماأريد أن أشق عليك ستجدنى إن شاء الله من الصالحين ؛ قال ذلك بينى و بينك ؛ أيما الأجلين قضيت فلاعدوان علىّ ، والله على مانقول وكيل » .

ورحب موسى بالعقد وبالمـكافأة عن طيب خاطر ، ورضا نفس ، فرشحه هذا الخاطر الطيب ، وهذه النفس الرضية ، وهـذا الاستعداد الفطرى الطبيعى ، لأسمى شيء ، هو النبوة . . . « فلـما قضى موسى الأجل وسـار بأهله آنس من جانب الطور ناراً ، قال لأهله امكثوا إنى آنست نارا لعلى آتيـكم منها بخبر أو جذوة من النار لعلـكم

تصطلون . فلما أتاها نودى من شاطىء الوادى الأيمن فى البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى : إنى أنا الله رب العالمين » ! ! .

ورسولنا صلى الله عليه وسلم استأجرته خديجة على مالها فقبل راضياً ، وسن لنا فى ذلك أعظم السنة فى الأمانة والصدق والإخلاص ! !

ولما جاءنا برسالته الإنسانية الخالدة قدر أن لكل إنسان أن يعمل ولا حياة بغير عمل .

فلقد أخرج البخارى أن رجلا جاء إلى النبى صلى الله عليه وسلم يطلب إليه أن ينظر فى أمرة لأنه لايعمل ؛ ولا شىء عنده يستعين به على القوت ، فدعا رسول الله بقدوم ودعا بيد من خشب سوّاها بنفسه ووضعها فيها ، ثم دفعها للرجل ، وأمره أن يذهب إلى مكان عينه له ، وكلفه أن يعمل هناك لكسب قوته ، وطلب إليه أن يعود بعد أيام ليخبره بحاله ، فعاد الرجل يشكر لرسول الله صنيعه ! !

ومن هنا يرى الإسلام أن من حق كل إنسان على الدولة أن يجد عملا . وأن الدولة يجب أن توفر أعمالا تناسبهم ، وتحارب البطالة بشتى الوسائل .

وأن توجد آلات العمل التى يحتاج إليها العامل ، كما أوجد رسول الله صلى الله عليه وسلم « القدوم » للعامل .

وبذلك تكون الدولة مسئولة عن الفرد فى جميع الحالات ، إن كان

عاطلا أوجدت له عملاً ، وإن كان عملا كفلت له راحة ومعونة ويسرا ! ! .

ولم يهمل الإسلام العلاقة بين العامل وصاحب المال . فلقد حدد رسول الله ذلك تحـديداً دقيقاً إذ يقول : « إخوانـكم خولـكم ، « خدمكم » فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه ممـا يلبس ، ولا يكلفه من العمل مالا يطيق ، فإذا كلفتموهم فأعينوهم » .

ويعلق الأستاذ البهى الخولى على هذا الحديث[1] فيقول :

« لقد سنّ الإسلام لأجر الأجراء ثلاثة مبادىء :

(١) الأخوة ، فالعامل أخو صاحب رأس المال ، والخادم أخو رب البيت . وأخص خصائص الإخاء : المساواة التامة بين الطرفين ، أو بين الأخ وأخيه ! ! فلا فاضــل ولا مفضول ، ولا كبير ولا صغير ، ولا عزيز ولا ذليل ، ولا غنى ولا فقير ! ! .

والإخاء حين يفرض هذه المساواة لايـكتفى بالتسوية بين النظير ونظيره ، كما يـكتفى مقوّم السلع بأن هذا يساوى ذلك ! ! .

لا . . . إنها المساواة التى تجعل هذا من ذاك ، وذاك من هذا . .

وهل الإخاء إلا السر الذى يخلط الدماء ، ويشق الجميع من رحم واحدة ، وينحدر بهم من الأصل الأعلى . . .

(١) فى كتابه « الإسلام لاشيوعية ولا رأسمالية » .

والمبدأ الثانى هو الذى نرى فيه الرسول كأنه يقصد أجراء المنازل ، أى الأجراء الذين يساكنون صاحب العمل فى بيته ، ويعملون فى داخله أو خارجه ، « فمن كان أخوه تحت يده ، فليطعمه مما يطعم ، وليلبسه مما يلبس » .

ومعنى ذلك :

(١) أنه لا يقل أجر الأجير الذى ينقطع لصاحب رأس المال عن كفايته من الطعام والثياب ، أما المسكن : فهو يساكن صاحب العمل فى بيته ! .

(٢) وأنه لايقل مستوى كفاية الطعام والثياب من حيث الجودة عن المستوى الذى يعيش فيه صاحب العمل وسائر أفراد أسرته مادام العامل يعيش معهم فى بيت واحد . . .

(٣) إن الحديث الشريف يقرر الحد الأدنى فقط ، أما مافوق ذلك فلم يعرض له ، لأنه متروك للظروف وتقدير الاعتبارات المختلفة ! ! وبذلك يفتح الإسلام أمام الأجراء كل باب لجلب الثراء وتحصيل المال كفاء مايقدمون من عمل .

وقد طبق صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحكام تلك القاعدة على أنفسهم وخدمهم أدق تطبيق وأوفاه ! ! .

فهذا أبو ذر ما كان يشترى لنفسه ثوباً إلا ويشترى مثله لخادمه! من نفس النوع ونفس اللون وبنفس السعر .

وقد كنا قسمنا الأجراء الذين ينقطعون للعمل إلى فريقين :

(١) فريق يقيم مع صاحب العمل فى بيت واحد .

(٢) وفريق آخر يستقل بمسكن خاص ! .

والفريق الآخر له نفس هذه الكفاية التى قررها الحديث :

(١) من الطعام والكسوة ، أى الأجر الذى يكفل الوفاء بكافة مطالب الطعام واللباس .

(٢) وليس هذا الطعام فحسب ؛ بل لابد أن يراعى فى الأجر أن يتسع لقيمة المسكن . . فإن الرسول سكت عن المسكن ، لأنه كان يتكلم عن أجير فى سكن .

و بعد :

فهل عرفنا تقدير الحد الأدنى للأجر ؟ ؟ .

إن ديننا يقول عنه منزله « اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام ديناً » .

إن ديناً يصفه منزله بأنه النعمة التامة على عباده ، جدير أن لا يقف بالأجر عند هذا الحد ، و إلا فكيف يتزوج ، ومن أين يتزوج ؟ ؟ .

لقد قرر الإسلام الزواج لمن لم يكن متزوجاً ! ! .

روى أبو داود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « من كان لنا عاملاً فليكتسب زوجة ، فإن لم يكن له خادم فليكتسب خادماً ، فإن لم يكن له مسكن فليتخذ له مسكناً » .

إننى أشعر أن هذا الحديث الشريف يغنينى عن دعوة جمهور الموظفين والعمال إلى الإسلام ! ! .

المبدأ الثـالث : وهو خاص بتقرير مراعاة التيسير فى العمل على العامل ، وعدم إرهاقه بما فوق طاقته . . . وذلك هو منطق العدالة وحكم الإنصاف ، والإسلام بتقرير هذا المبدأ لايستجدى صاحب العمل أن يرحم العامل ، ولا يسـأله الشفقة به ، بل إن حقه الطبعى بوصفه كائناً حياً ـ أن لا يحمل من العمل إلا وسعه وطاقته ؛ فليس الإنسان شاباً أو آلة تدار بغير حساب ! ! .

ويزيد الإسلام على ذلك مبدأ طريفاً : أنه لا يجيز هذه الأعمال المرهقة إلا بشرط تعاون صاحب العمل مع عامله عليها .

« فإذا كلفتموهم فأعينوهم » والإعانة تـكون بالمكافأة والتشجيع والجزاء الذى تطيب به النفس ! ! .

* * *

ويطالب الإسلام صاحب العمل بتحديد أجرة العامل وتقريرها فى عدالة وإنصاف حتى يطمئن خاطر العامل وتطيب نفسه . .

وهذه حساسية بالغة الدقة والتقدير للعامل وإنسانيته .

ولقد وقف نبى الإسلام موقف المدافع عن العمال :

« أعطوا الأجير حقه قبل أن يجف عرقه » . وتأثر كثير من

الصحابة بهذا الحديث ، فكان إذا استأجر عاملاً رجاه أن لا يمسح عرقه حتى يأخذ أجره ! .

وهل تجد دفاعاً عن العمال بعد أن يعلن النبى أنه خصم « لمن استأجر أجيراً فاستوفى منه ولم يوفه أجره » .

* * *

فأى دين ، وأى شريعة ترعى للعامل حقه ، وتقدس العمل مثل دين الإسلام ، وشريعة السلام ؟ ؟ .

حقوق الإنسان

فى

الإســـــلام

(١)

المساواة

بسط الإسلام أجنحته للناس جميعاً ، وأجلسهم على بساطه جلوساً متساوياً من غير أن يميز طبقة عن طبقة بكراسى مزركشة ، أو نمارق مصفوفة ، وجعلهم جميعاً فى ظلال العدالة والقانون كأسنان المشط ، على حد تعبير رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولم يبح الإســلام أى تفرقة إلا تفرقة الـكفاية الناشئة عن العمل الذى يقدمه الإنسان لربه ونفسه ووطنه وأمته ! !

وبهذا يكون الإسلام قد قضى على النظام الطائفى والنظام الطبقى قضاء مبرماً لا بعث بعده ولا نشور .

ونبه الإسلام إلى أن هناك مظهرين من مظاهر المساواة ينبغى أن يجعلهما المسلم نصب عينيه دائماً :

(١) مظهر الطفل حين يولد

(٢) مظهر الإنسان حين يموت

هذا ينزل إلى الأرض حافياً عارياً ، وسيان فى هـذا ابن الصغير والـكبير ، وذلك يذهب إلى القبر حافياً عارياً ، وسواء فى هذا العظيم والحقير ! !

ويجلجل القرآن بهذه المساواة فيعلن :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم »[1] .

ويقدم لنا الرسول مذكرة تفسيرية فى هـذا الموضوع عند حجة الوداع فيقول :

« أيها الناس : إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلـكم لآدم وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم . ليس لعربى على عجمى ، ولا لعجمى على عربى ، ولا لأحمر على أبيض ، ولا لأبيض على أحمر فضل إلا بالتقوى !!

ألا هل بلغت . . . اللهم فاشهد » .

ولم يكتف رسول الله بهذا القول البليغ الجامع ، بل إنه ما كان يجد فرصة لتحقيق ذلك إلا بين ووضح . .

وحادثة شفاعة أسامة فى القرشية ، وردّ النبى لهـا غاضباً قائلا :

« أتشفع فى حد من حدود الله » . ؟ ؟

---

(١) الحجرات .

« لقد أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف قطعوه !

والله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها » . .

هذه الحادثة

وحادثة أبى ذر حين قال للزنجى يابن السوداء ، فقال له النبى :
« إنك امرؤ فيك جاهلية » .

هاتان الحادثتان خير دليل على المساواة العملية بين أفراد المسلمين !! فحاكم القوم كمحكومهم ، وقائدهم كجنديهم ، لا يكبر واحد منهم عن العدالة ، ولا يصغر أى واحد فيهم عن المساواة !!

عرفنا ذلك عن طريق الكتاب والسنة . .

فإذا انتقلنا إلى القوانين الصديقية والعمرية ، وجدنا تطبيقاً دقيقا وإنصافاً حكيما وعدلا حازما ! !

هذه رسالة عمر إلى أبى موسى الأشعرى :

« أما بعد : فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . . .

آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، أى سَوِّ بينهم ، حتى لايطمع شريف فى حيفك ! ولا ييأس ضعيف من عدلك » .

ويوصى الخليفة من بعده فيقول له :

« اجعل الناس عندك سواء ، لا تبال على من وجب الحق ، ثم

لاتأخذك فى الله لومة لائم ، و إياك والأثرة والمحاباة فيما ولاك الله »[1] .

وهذه خطبته :

« يا أيها الناس : والله ما أرسلت عمالى إليكم ليضربوا أبشاركم ولا ليأخذوا أموالكم ؛ ولكن أرسلتهم إليكم ليعلموكم دينكم وسننكم ، فمن فُعل به سوى ذلك فليرفعه إلىّ ، فوالذى نفسى بيده : إذاً لأقصنّه »[2] .

ولقد قص فعلا من ابن عمرو بن العاص حين ضرب ولده أحد الرعية المصريين ، وقال له : أنا ابن الأكرمين !!

أعطى عمر الدِّرة للرجل وقال له : اضرب ابن الأكرمين !!

و إذا بحثنا فى تاريخ التحضر الإنسانىّ والمدنية الراقية لا نجد مثالا أبهى من هذا المثال :

« كان مع أبى موسى الأشعرى ـ وكان قائداً ـ فى بعض الفتوح رجل ذو صوت ونكاية فى العدو ، فغنموا مغنما ، فأعطاه أبو موسى بعض سهمه ، فأبى أن يقبله إلا جميعاً ، فغضب منه أبو موسى وجلده عشرين سوطا وحلق شعره !!

فجمع الرجل شعره ، ثم ترحل إلى عمر بن الخطاب حتى قدم عليه

---

(١) عمر بن الخطاب لعلى الطنطاوى .

(٢) القضايا الكبرى للأستاذ عبد المتعال الصعيدي .

فاستخرج شعره ، ثم ذكر الرجل قصته مع أبى موسى ، فقال : يا أمير المؤمنين ، إنى كنت ذا صوت ونكاية فى العدو ، وقد أعطانى أبو موسى بعض سهمى ، فأبيت إلا أن آخذه جميعاً ، فضربنى عشرين سوطا ؛ وحلق رأسى وهو يرى أن لا يقتص منه !!

فقال عمر : « لأن يكون الناس كلهم على صرامة هذا أحب إلىّ من جميع ما أفاء الله علىّ » .

ثم كتب عمر إلى أبى موسى :

« سلام عليكم :

أما بعد . . فإن فلاناً أخبرنى بما كان منك ، فإن كنت فعلت ذلك فى ملأ من الناس ، فعزمت عليك لما قعدت له فى ملأ من الناس حتى يقتص منك ، و إن كنت فعلت ذلك فى خلاء من الناس ، فاقعد له فى خلاء من الناس حتى يقتص منك !! »

ثم قدم الرجل على أبى موسى وقال له الناس :

اعف عنه .

فقال الرجل : لا والله !! لا أدعه لأحد من الناس !!

فلما قعد أبو موسى ليقتص الرجل منه ، رفع الرجل رأسه إلى السماء ثم قال :

اللهم قد عفوت عنه !! »[1]

---

(١) القضايا الكبرى .

. . . وكان عمر يمشى فى الناس كأحدهم . وكان فى أيام المواقع الحربية يستخبر الركبان ، وينتظر البريد من مسيرة الميلين والثلاثة بعيداً عن المدينة . . وكم حدثت حوادث طريفة من هذه الديمقراطية العمرية ، كان إحداها : « لما نزل رستم القادسية ، كان ـ عمر ـ يستخبر الركبان عن أهل القادسية من حين يصبح إلى حين انتصاف النهار ، ثم يرجع إلى أهله ومنزله . قال : فلما لقى البشير سأله من أين ؟ قال : من القادسية ، قال له : ياعبد الله : حدثنى . . قال له : هزم الله العدوَّ ، وعمر يجرى وراءه و يستخبره ، والرجل يهرول بناقته ولا يعرفه . . حتى دخل المدينة ، فإذا الناس يسلمون على عمر بإمرة المؤمنين ، فقال الرجل :

فهلا أخبرتنى رحمك الله أنك أمير المؤمنين ؟

وجعل عمر يقول :

لا عليك ياأخى[1] » . .

وموقف عمر من جبلة بن الأيهم يرينا أن المساواة أصبحت طبعاً له مع جميع الناس سواء الملوك والسوقة لافرق بين هذا وهذا فى نظر الإسلام

هذا جبلة بن الأيهم ملك غسان ـ بعد أن أسلم ـ كان يطوف بالكعبة فى موسم الحج ، فوطىء رجل من فزارة طرف إزاره فانحل الإزار ، فرفع جبلة يده وضرب بهـا العربى ضربة هشمت أنفه ،

---

(١) صور من التاريخ الإسلامى للأستاذ عبد الحميد العبادى .

فشكاه إلى عمر ، ولما لم يقبل العربى العفو عن ملك غسان ، أبى عمر إلا أن يهشم أنف جبلة ، تنفيذاً للقانون الإسلامى .

قال جبلة :

كيف ذلك ، وهو سوقة وأنا ملك ؟

فأجاب عمر :

إن الإسلام جمعك و إياه ، وساوى بينكما ، فلست تفضله بشىء إلا بالتقوى . فلم يحتمل ذلك جبلة . . وهاجر من المدينة ! ! .

* * *

وما لنا نذهب بعيداً وقد كان يحب الإنصاف من نفسه ، وعلى أحب الناس إليه .

أما نفسه فقد ضرب رجلاً بالكعبة ، وكان الرجل مخطئاً ؛ فقال الرجل :

إن كنتُ على حق فقد ظلمتنى .

و إن كنتُ على باطل فهلاً علمتنى ! ! .

فما كان من عمر إلا أن أعطاه الدرة وقال له :

اضرب بها عمر كما ضربك .

ومرة أخرى : رأى رجلا على حالة فاحشة مع امرأة فجمع الناس وقال لهم :

ما رأيكم لو أخبرتكم بأنى رأيت رجلا وامرأة على فاحشة ! !
بماذا تشيرون ؟

فقال له الإمام علي :

يأتى أمير المؤمنين بأربعة شهود أو يجلد حد القذف ! ! .

فسكت عمر وانتهت القضية .

وأما مع أحب الناس إليه ... .

فقد حدث أن ولده عبد الرحمن شرب النبيذ مرة فى مصر حتى سكر فذهب عبد الرحمن إلى عمرو بن العاص حاكم مصر وقتذاك ، وطلب منه إقامة الحد عليه . فحاوره عمرو قليلاً . فلم يرض عبد الرحمن وأبى إلا إقامة الحد ، فأقيم الحد عليه فى بيت عمرو بن العاص ، حيث انتحى عبد الرحمن ناحية فى البيت وحلق رأسه ، وكان العرف الإسلامى أن يحلق شعر رأس المحدود على رءوس الأشهاد .

وهنا يأخذك العجب من غرائب الخليفة العمرى .

قال عمرو بن العاص :

والله ما كتبت لعمر بحرف مما كان ، حتى جاءنى كتاب فإذا فيه :

« من عبد الله عمر بن الخطاب إلى العاصى بن العاص .

عجبت منك ياابن العاصى وجرأتك عليَّ ، وخلافك عهدى .

تضرب عبد الرحمن فى بيتك ، وقد علمت أن هذا يخالفنى .

إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك ، تصنع به ماتصنع بغيره من المسلمين ! ! .

فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب حتى يعرف سوء ماصنع[1] » .

* * *

ومساواة الإسلام تترك الفرصة لإبراز العظماء وتشجيع العاملين ، و بناء الأفراد .

ومساواة الإسلام تحفظ الكرامة ، وتحيي الإنسانية وتحفظ للناس منازلهم من غير جحود أو تمييز ! ! .

قال الأستاذ الغزالي :

« وليست مساواة الإسلام معناها : أن البشر أصبحوا نسخاً كثيرة من كتاب واحد ، بل هم مختلفون اختلافاً بيناً في ملكاتهم النفسية ، ومواهبهم العقلية ؛ واختلافُ أجورهم المادية ، وحظوظهم المعنوية تبعاً لذلك لاغضاضة فيها ! .

وليس هناك كالجنس الإنساني في تفاوت أفراده كمًّا ونقصاً ، وكرماً ولؤماً . . و بقدر ماينطوي الإنسان على مواهب نفيسة ينطوي

---

(١) الفاروق للطنطاوي .

كذلك على غرائز خسيسة . . ومع ذلك التباين الشاسع بين الأفراد ؛ فهم متساوون أمام الحقوق والواجبات العـامة ، وأمام فرائض الدين والتزامات القانون .

ليس لذكى أن يسفك دم غبى ، وليس لقوى أن يأكل مال ضعيف ! وليس لمتفوق أن يتسلط على متأخر ، تسلط جور وافتئات .

ذلك أنهم و إن تباينت طاقتهم فهماً وسلوكاً فى هذه الحياة ، فإن بينهم قدراً مشتركاً لا يفضل أحد أحداً فيه ؛ هو الأخوة العامة التى يجرى دمها فى عروقهم من الأب الأول الذى نسـلهم أجمعين ، وسلسل فى شتى الأعصار والأمصار أحمرهم وأسودهم وأقزامهم وعمالقتهم .

والأسرة الواحدة قد يكون فيها الغصن العالى والغصن القريب .

وهذا لايعنى تنكر بعضهم لبعض ، أو جحود الأصل الذى انبثقوا منه وعاشوا عليه .

بل الواجب يقضى بأن يأخذ القوى بيد الضعيف ، وأن يبسط عليه جناح رحمته ماظل محتاجاً إليه .

وجمهرة تعاليم الدين القويم تقوم على هذا الأساس المبين ، وتقرر بين البشر كافة هذه الأخوة العريقة ، ثم تنظر إلى حقوق هذه الأخوة حين تأمر بالبر والتواصل والعدالة ، وحين تنهى عن الظلم والقطيعة والعقوق .

ولعل اعتبـار الإنسانية كلها أسرة متشابكة الأجزاء متكافلة

الأعضاء ، اعتبارها قرابة تحترم ورحماً توصل ، هو ماعناه ختام الآية الكريمة :

« يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، و بث منهما رجالا كثيراً ونساء ، واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام ؛ إن الله كان عليكم رقيبا »[1]

و بهذا التفسير يتفق عجز الآية مع صدرها فى الاتساع والشمول .

. . . فالإسلام حين هتف بالمساواة وصرخ مطالباً بها ، لم يدر فى خلده قط أن يُسوّى بين خائن وأمين ، أو بين كسول ونشيط ، أو بين ذكى وغبى !!

إنما أراد أن يُسوى بين الخائن والخائن فى العقاب ، و بين الأمين والأمين فى الثواب ، و بين الكسول والكسول فى المنزلة ، والنشيط والنشيط فى فرص الربح وأسباب التقدم[2] » .

---

(١) سورة النساء

(٢) الإسلام المفترى عليه .

(٢)

الحـــــــرية

« لا إكراه فى الدين » .

أعظم مبدأ تأمينى فى الإسـلام لحرية التدين ، ولم يأت هذا الأمان من قائد فى الحرب أو خليفة فى الحـكم ؛ بل جاء من رب عظيم فى قرآن عظيم ، فله قداسة القرآن وجلال التنزيل ! .

وهكذا كان المسلمون الأولون فى سلمهم وحربهم ! ! .

فابن الخطاب حين فتح المسلمون بيت المقدس كتب عهداً بينه و بين النصارى جاء فيه :

« هذا ماأعطى عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان .

أعطاهم أماناً لأنفسهم وكنائسهم ، وصلبانهم وسقيمها ، و بريئها وسائر ملتها ، أنه لا تسكن كنائسهم ، ولا تهدم ، ولا ينتقص منها ولا من غيرها ولا من صليبهم ، ولا من شىء من أموالهم ، ولا يكرهون على دينهم ، ولا يضار أحد منهم ، ولا يسكن إيلياء معهم أحد » .

بل إن الفاروق لم يحافظ على ذلك حياته فقط ، بل أوصى الخليفة من بعده بأهل الذمة خيراً ، كما أوصى الرسول من قبله بأهل الذمة خيراً

وكان من وصية الخليفة الأولُ لأسامة حين وجهه إلى الحرب :

« وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له » .

* * *

ونصوص الكتاب والسنة كثيرة متواترة على معاملة أهل الكتاب بالحسنى والتسامح والروح الطيب الكريم :

« يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا و بينكم ألاَّ نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله[1] » .

« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن[2] » .

« ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن[3] » .

ويحاول القرآن أن يحرص على قرع الحجة بالحجة « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين[4] » .

« هل عندكم من علم فتخرجوه لنا[5] » .

« إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً[6] » .

ولم يرتفع العقل فى دين من الأديان مثلما ارتفع شأنه فى الإسلام .

---

(١) سورة آل عمران (٢) سورة النحل (٣) سورة العنكبوت
(٤) سورة النمل (٥) سورة الأنعام (٦) سورة النجم .

هاهو القرآن يرشدنا إلى أن ننظر ونتدبر ونفكر ونعقل ونستبصر ونؤمن ، ونعى على أهل الكفر تقليدهم الأعمى واتباعهم مَن قبلهم بدون وعى .

« وإذا قيل لهم اتبعوا ماأنزل الله ، قالوا : بل نتبع ماوجدنا عليه آباءنا[1] » .

« أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض[2] » .

فأركان الحرية الدينية فى الإسلام مكفولة ، وحقوقها موجودة !!

* * *

ينظر الإسلام إلى الحرية على أنها غذاء للإنسان كالماء والهواء !

ظهر ذلك جلياً فى الحرية الدينية التى وصلت إلى حد التسامح النادر الوجود ؛ فى وقت كانت فيه الغلبة والسيادة !! . للمسلمين ـ كما ذكرنا .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم كان يحترم مشورة الرأى ، ويرجع فى بعض الأحيان عن رأيه هو إلى الرأى الذى يراه من صحابته الأمناء الأجلاء !! .

وقصة النزول فى بدر نزولاً على رأى الحباب بن المنذر خير دليل .

* * *

وأعجب مايدهشك فى الصدر الأول : أنه كان يتقابل الخليفة

---

(١) سورة لقمان (٢) سورة الأعراف .

وأحد الناس فيتجاذبان الرأى و يتناقشان المسألة ، كما يتناقشها صديقان ، لاحاكم ومحكوم ! ! .

وكم كان يرسل أبو بكر الرأى فيخالفه عمر فيرجع الخليفة عن رأيه من غير تحرج ولا عنت ! .

فأما القرآن الكريم ، فقد أطلق للعقل العنان فى الأرض والسماء والبحار ، والجبال ، لينطلق فى الآفاق كيفما يشاء ! ثم يعود مملوء الوطاب ، عميق الفكرة ، غزير النتاج ! .

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، و إلى السماء كيف رفعت ، و إلى الجبال كيف نصبت ، و إلى الأرض كيف سطحت[1] » .

« قل انظروا ماذا فى السموات والأرض[2] » .

« إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ، الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ، و يتفكرون فى خلق السموات والأرض ، ربنا ماخلقت هذا باطلاً ، سبحانك[3] » .

« ومن آياته خلق السموات والأرض ، واختلاف ألسنتكم وألوانكم ، إن فى ذلك لآيات للعالمين .

---

(١) سورة الغاشية (٢) سورة يونس (٣) سورة آل عمران .

« ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله ، إن فى ذلك لآيات لقوم يسمعون .

« ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماء فيحيي به الأرض بعد موتها ، إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون[1] » .

وهنا نلاحظ شيئاً جديراً بالتسجيل .

فالقرآن يحول عقلك إلى الآفاق ، ولكن لا يفرض عليك شيئاً معيناً . . لا يفرض عليك نظرية علمية ، ولا رأياً معيناً . . . هو فقط يقول لك : انظر واستنبط .

وهذا هو مانسميه نحن اليوم « الحرية العلمية ، حرية التفكير الطليق ، والعقل الحكيم .

فهل تجد حرية عقلية مكفولة فى دين مثل دين الإسلام ؟ .

إن الإسلام وهب كل عاقل حرية المناقشة لأى أمر من أمور الدولة ولأى شخص فيها ، مادام فى حدود الأدب الكريم ، والخلق السليم !

وطريقة الاستفتاء فى الإسلام من أول أسس الحرية السياسية

روى البخارى فى صحيحه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قام حين جاء وفد هوازن مسلمين ، فسألوه أن يرد لهم أموالهم وسبيهم ، فقال

---

(١) سورة الروم .

صلى الله عليه وسلم : معى من ترون ، وأحب الحديث إلىّ أصدقه ، فاختاروا إحدى الطائفتين : إما السبي ، و إما المال ، وقد كنت استأنيت بكم » . وكان قد أنذرهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بضع عشرة ليلة حين قفل من الطائف ، فلما تبين لهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم غير رادّ إليهم إلا إحدى الطائفتين ، قالوا : فإنا نختار سبينا ، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسلمين ، فأثنى على الله بما هو أهله ، ثم قال :

« أما بعد : فإن إخوانكم قد جاءوا تائبين ، و إنى قد رأيت أن أرد عليهم سبيلهم ، فمن أحب منكم أن يطيِّب ذلك فليفعل « أى يجيز ذلك » ومن أحب منكم أن يكون على حظه حتى نعطيه إياه من أول مايفىء الله علينا فليفعل ، فقال الناس : قدطيبنا ذلك يارسول الله » فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنا لاندرى من أذن منكم ممن لم يأذن ! فارجعوا حتى يرفع إلينا عرفاؤكم أمركم ، فرجع الناس فكلمهم عرفاؤهم . ثم رجعوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأخبروه أنهم قد طيّبوا وأذنوا » .

ومسألة استخلاف أبى بكر لسيدنا عمر ، لم تكن من أبى بكر وحده كما يفهم كثير من الناس ، بل كانت شورى بأدق ما فى هذه الكلمة من معنى !

فقد أخرج ابن الجوزى ، أنه لما ثقل أبو بكر واستبان له من نفسه ، جمع الناس إليه فقال :

« إنى قد نزل بى ما ترون ، ولا أظننى إلا ميتاً لما بى وقد أطلق الله أيمانكم من بيعتى ، وحل عنكم عقدتى ، ورد عليكم أمركم ، فأمّروا عليكم من أحببتم ، فإنكم إن أمّرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى ؛ فقاموا فى ذلك وخلوا عنه ، فلم يستقم لهم أمر فرجعوا إليه ؛ فقالوا : رأينا ياخليفة رسول الله رأيك ! قال : فلعلكم تختلفون ، قالوا : لا . قال: فعليكم عهد الله على الرضا ، قالوا : نعم . قال : فأمهلونى حتى أنظر لله ولدينه ولعباده .

ولسبع خلون من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة ، جمع كبار الصحابة فاستشارهم فى العهد لعمر بن الخطاب ، فكلهم قال خيراً ؛ فدعا عثمان بن عفان وأملى عليه :

« بسم الله الرحمن الرحيم ؛ هذا ماعهد به أبو بكر خليفة محمد صلى الله عليه وسلم عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، فى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويؤمن فيها الفاجر ؛ إنى استعملت عليكم عمر بن الخطاب ولم آلكم خيراً ؛ فإن صبر وعدل فذلكم علمى به ورأيى فيه ، و إن جار و بدل فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب ، وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون !!

ثم أمر بالعهد فقرىء على المسلمين ، وقد أطل عليهم فقال لهم : أترضون من استخلفت عليكم ؛ فإنى ما استخلفت عليكم ذا قرابة ، وإنى قد استخلفت عليكم عمر ، فاسمعوا له وأطيعوا ، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ؛ فقالوا سمعنا وأطعنا ، ثم نادى عمر فقال له :

« إنى قد استخلفتك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »

ومن حرية الرأى فى صدر الإسلام مارواه ابن الجوزى أيضاً : من أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما رأى الرجال يتغالون فى مهور النساء حين اتسعت عليهم الدنيا فى عصره ، فخاف عاقبة ذلك ، وأراد أن يضع لها حداً ، فخطب المسلمين فى المسجد وقال :

« لاتزيدوا فى مهور النساء على أربعين أوقية ، ولو كانت بنت ذى القصة . فمن زاد ألقيت الزيادة فى بيت المال ؛ فقالت امرأة من صف النساء طويلة فى أنفها فطس : ماذاك لك ! قال ولم : قالت لأن الله تعالى يقول :

« وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً ؛ أتأخذونه بهتاناً وإثماً مبيناً ؟ » .

فرجع عمر عن رأيه وقال : اللهم غفرا .. أصابت امرأة وأخطأ عمر ، كل الناس أفقه من عمر .

ثم صعد المنبر وأعلن رجوعه عن قوله . .

قال الأستاذ عبد الوهاب خلاف[1] :

« المراد من الحرية أن يكون الشخص قادراً على التصرف فى شئون نفسه وفى كل مايتعلق بذاته ، آمناً من الاعتداء عليه فى نفس أو عرض أو مال أو مأوى أو أى حق من حقوقه .

على أن لا يكون فى تصرفه عدوان على غيره..

ومن هذا التعريف نتبين أن الحرية تتحقق بتحقق أمور ، وأنها معنى مكون من حريات عدة . . وهى حرية الذات ، وحرية المأوى ، وحرية الملك ، وحرية الاعتقاد ، وحرية الرأى ، وحرية التعليم . ففى تأمين الفرد على هذه الحريات كفالة لحريته » .

* * *

ما أجمل حرية الإسلام .

فأما الحرية الحمراء « فإنه وإن نصت المادة الرابعة من الدستور السوفيتى على القضاء على الاستغلال الانسانى للإنسان بسبب إلغاء الملكية الخاصة ، فإن استغلال الانسان مازال قائماً فى الاتحاد السوفيتى مع فارق واحد ، هو أن الدولة هى التى تمارسه ، فهى التى تعين مايحلو لها من ساعات العمل ، والفلاحون غير أحرار فى عملهم واستثمارهم للأرض ، و بقاؤهم للمزرعة رهن بإرادة مندوب الدولة ، كما أنها تفرض السخرة على الملايين من الأفراد بأجور زهيدة ، فهى بذلك تقوم

---

(١) فى السياسة الشرعية .

بذلك تقوم مقام ملاك الأرض من الإقطاعيين ، وكبار أرباب العمال في البلاد ذات اللون الرأسمالي الصارخ[1] » .

وبذلك تكاد تنعدم الحرية الشخصية انعداماً لا مثيل له .

فإذا كان الشعب السوفيتي قد تخلص من الرأسمالية الصارخة ، فقد وقع بين براثن البيروقراطية القاسية .

وبهذه النظرة نفسها نظرت الفلسفة الماركسية إلى الدين . فمع أن المادة ١٢٤ من «الدستور السوفيتي» تنص على حرية العقيدة إذ تقول: « تحقيقاً لحرية المعتقدات تفصل الكنيسة عن الدولة ، والمدرسة عن الكنيسة ، ويعترف لجميع المواطنين بحرية ممارسة الشعائر الدينية وبحرية الدعوة اللادينية » . مع هذا النص فإن الآراء الماركسية تخالف هذا النص مخالفة واضحة . وكذلك صدر كتاب لإنجلز فيه هذه النظرة نفسها .. لقد غدت عبارة « الدين مخدر للشعوب » قطب الرحى في السياسة الماركسية مع الدين ، إذ مافتئت الماركسية تنظر إلى كافة الأديان على أنها وسائل تستخدمها الطبقة البرجوازية الرجعية للدفاع عن الاستغلال وتخدير قوى الطبقات العاملة ، وهـذا ماتسميه الفلسفة الماركسية « بالمجتمع الاستعبادي » « فالدين أحد أشكال الظلم الروحي الذي يضغط على جماهير الشعب التي يحطمها الكدح الدائب في سبيل

---

(١) الدستور السوفيتي للأستاذ فؤاد شبل .

منفعة الآخرين ، كما تحطمها الحاجة والعزلة فتتجه الطبقات الواهنة إلى الايمان بحياة أطيب فى عالم الآخرة « مثل إيمان الانسان الضعيف أمام الطبيعة بالآلهة والشياطين والمعجزات » . والدين يعلم الكادح والمتألم الصبر فى الدنيا ويمنحه العزاء مع الأمل فى الجزاء الأخروى ، وهو نفثة المخلوق المضطهد ، وشعور بالدنيا التى لا قلب لها ، ووسيلة الإخضاع الروحى » . وكثيراً ماردد ماركس « ليس الدين هو الذى يخلق الرجل ، ولكن الرجل هو الذى يخلق الدين » . ومع هذه النظرة الماركسية المتطرفة نحو الدين ، فإن النزعة الدينية لا زالت فى الاتحاد السوفييتى تجد طريقها إلى القلوب .

* * *

وإذا ماتكلمنا عن الحرية فى الفلسفة الماركسية بإيجاز ، فلا مانع أن نعرج على ماتسميه « الرأسمالية » ديمقراطية . وأول مظهر من مظاهر الديمقراطية الغربية أن عشر السكان من الولايات المتحدة من الزنوج لايجدون لهم مكاناً فى المجتمع ، ولا يعرفون لهم حقوقاً . وعشرات المذابح تنشب بين البيض والسود فى قلب أمريكا تحت سمع الديمقراطية وبصرها . حتى إن الاستبداد الطبقى يحرم على الزنوج أن يجلس الزنجى فى مقعد الأبيض فى الأتوبيس . وقد دخلت فتاة زنجية إحدى الجامعات الأمريكية فطردها الشباب الأبيض ، فرفعت قضية فى المحكمة

فحكمت المحكمة لها ونفذت الفتاة الحكم ، فضربوها بالطوب ، وألزموها بيتها تحت تأثير الضغط والإرهاب العنصرى .

- فأما حرية العقائد فقد برزت مواقف الديمقراطية الغربية السوداء بتعصبها ضد الأمم المسلمة ، وضد الشعوب المتحررة ، إذ تآمرت على خنقها وكبت أنفاسها ، دون مبالاة من ضمير ، أو وازع من إنسانية - وها هى ذى التكتلات الغربية والأحلاف العسكرية التى تتجمع ، فتحاول الانقضاض على أمتنا العربية ولكنها ستبوء بالفشل وترجع بالخسران . وإذا كان الجانب الاقتصادى هو الشغل الشاغل للأمم اليوم ؛ فإن الدكتاتورية الاقتصادية الغربية لم تجعل للديمقراطية الحقة أى مكان ولا أى احترام . ففى البلاد الغربية ، تنحصر السلطة الاقتصادية أساساً فى أيدى القائمين على البنوك والمشروعات الاقتصادية الكبيرة ، وهؤلاء الأفراد فى إمكانهم أن يستغلوا عشرات الآلاف من الأفراد . . وليست غاية أرباب الأعمال تحقيق رفاهية المجتمع ، ولكن اجتناء الربح . فإذا ماتعارضت المصلحة العامة مع مصلحتهم الخاصة ، قدموا الثانية ... وليس لسواد العمال شعور بالمسئولية تجاه أعمالهم .

ومن الجائز جداً أن يقدم أصحاب الأعمال مايشاءون من إنتاج فى سبيل مصلحتهم لأى جهة من الجهات ولو كان فيها ضرر للبلاد . وكل النظم الاقتصادية فى الديمقراطية الغربية قائمة على النظام الطبقى . فكيف

يتأتى لمجتمع هذا حاله أن يدعى صفة الديمقراطية وهو يعجز عن التوفيق بين جانبيه السياسى والاقتصادى ، وفى الوقت نفسه تستند على حرية الاستغلال وعلى نظام طبقى جامد .

* * *

إننا نتلفت يمنة ويسرة . فلا نجد حرية مثل حرية الإسلام ، لا حرية الشيوعية ، ولا حرية الديمقراطية . ولذلك سيظل الإسلام عالى الرأس ، خالد الأثر ، عميق الجذور . وستفهمه الشعوب ، كل الشعوب ، وستقترب منه بفطرتها وإدراكها السليم .

إننا فى وعى تقدمى عظيم ، وأساس وعينا : ثقافتنا وحضارتنا ، وتراثنا الأصيل العريق . فنحن لسنا غربيين ، ولا شيوعيين . إنما هى كلمة العروبة ووحدتها ونصرتها . . . والله غالب على أمره ، ولكن أكثر الناس لايعلمون .

المجتمع الاشتراكى الصحيح

الوضع الاجتماعى الصحيح للأمة : أن يشعر من هو فى الدور الأعلى بشعور من هو فى الدور الأسفل . حنينه وأنينه . آلامه وآماله . بأسائه ونعمائه ! .

أما إذا كان بين الساكنين فى الطبقة العليا والقاطنين الطبقة السفلى فراغ كبير وبون شاسع ، فإن هذا وضع غير صحيح يجب تعديله وتقويمه .

وأمتنا العربية المسلمة ، مرت عليها عصور طويلة وهى راكضة تحت وضع اجتماعى منحل أهدر كرامتها الروحية ، وقضى على شخصيتها الإنسانية .

وكان من جراء هذه الأوضاع السقيمة البائدة أن تخلف الفلاح المسلم فى الأمة العربية عن غيره من فلاحى الأمم المتحضرة . فكم من فلاحين عندنا أكلت الديدان أحشاءهم وامتصت الحشرات دماءهم . بينما أمثاله من فلاحى الأمم المتحضرة يتمتع كل التمتع بحقه كاملاً وكرامته كاملة .

كما كان من جراء الأوضاع السقيمة البائدة أننا نجد اليوم آلافاً من العجزة والمساكين يجدون فى البحث عن فتات الطعام

وقليل من الحطام يريدون أن يتبلغوا به ، فإذا نظرت إليهم وجدت الجسم عارياً إلا من ثوب هزيل ، ووجهاً معفراً و بصراً زائغاً ، كأن هذه الفئة من الناس مطرودة من رحمة الأرض ، أو محكوم عليها بالتشرد بين بنى الإنسان .

وأخيراً كان من جراء هذه الأوضاع السقيمة البائدة عمال يشكون قسوة الحياة وموظفون ألهب الغلاء ظهورهم بسياطه الكاوية ومتسولون انتشروا فى الطرقات العامة ، وكانوا أسوأ صورة لأنصاف الإنسانية حتى لكأنهم أشباح لا أرواح . لقد خيم الإقطاع ببؤسه وأثقاله على مجتمعنا ردحاً من الزمن . ولكننا والحمد لله استطعنا أن نقضى عليه ونفتته ونمزقه شر ممزق .

ومع هذا كله : هل نحن اليوم عبرنا بحر الشقاء ، ووصلنا شاطىء السعادة ؟ .

الحق أن الجواب : لم نصل بعد إلى بر السلامة . وكنا نود أن تكون محاولتنا فى الوصول إلى وضع اجتماعى صحيح محاولة سبّاج ماهر يصل إلى هدفه من أقرب طريق و بأيسر سبيل ، ولكننا لازلنا فى ميدان التجربة و بيننا و بين البر المقصود خطوات وخطوات .

إن فى المجتمع المسلم اليوم حرماناً وجشعاً . و بعدا عن المجتمع الاشتراكى الصحيح ؟ .

إن المجتمع المسلم الأول كان التاجر فيه يشعر بشعور زبائنه ، وكان الصانع رحيما كل الرحمة بكل من يتصل به ، وكان الغنى أخا أكبر عطوفاً على الفقير ، وكان ساكن الكوخ يجد من العواطف الرفيعة والمعانى السامية ماينزع الحقد من قلبه فلا يحمل للأثرياء إلا كل تقدير وبر وإخلاص ودعاء . وأى مشاركة بين مَن فى الطابق الأعلى والطابق الأسفل أقوى من هذه المشاركة العمرية يوم أن حج عمر الخليفة ، فكان يصلى بصلاته الناس ، ويلبى بتلبيته الناس ويبتهل بابتهاله الجميع .

وبينما هو كذلك ، إذ قطع تلبيته وابتهاله فجأة ، فسأله الناس : ماباله وما خبره ؟ فقال الفاروق :

« رأيت رجلاً فقيراً يسكن كوخاً صغيراً قد تهدلت ثيابه وزاغت نظراته فخشيت أن لايقبل الله منى دعاءا من شدة مسئوليتى أمام الله ! والله لو أحيانى الله إلى قابل ماتركت على ظهرها فقيراً » ! .

إن الإنسان المحروم إذا لم يجد منك لقمة تملأ بطنه الخاوية وتحرك معدته الخالية . فأسمعه كلمة طيبة تغذى فيه إنسانيته وتجدد فيه حيويته .

ولا يهمنا أن الأمنية العمرية تحققت أو لا ، وإن كنا نعتقد أنه سينفذ ماعزم عليه حرفياً ، وإنما الذى يهمنا دمعة الأمير لحال الفقير وشعور الحاكم بشعور المحكوم .

وسيدنا عمر حين لم يرض عن فقر الكوخ كان لايعجبه بذخ

القصور، ولا ترفها الفاجر! لأن سياسة الإسلام لا تقر المخمصة، ولا التخمة . . . . ولا تحب المسغبة ولا العربدة!!.

قصده مرة شاعر يريد مالا، فقال:

ياعمر الخير جزيت الجنة
اكس بُنَيَّاتى وأمَّهنَّه
وكن لنا من الزمان جُنَّة
أقسم بالله لتفعلنَّه

ولم تهتز العاطفة العمرية لهذا الشعر مخافة أن يكون قد حمل عليه ترف شاعرى، أو إطراء هادف، فسأل عمر الشاعر: فإذا لم أفعل يكون ماذا؟ فأجاب الشاعر:

يكون عن حال لتُسألنَّه
يوم تكون الأعطيات عنَّه
وموقف المسئول بينهنَّه
إما إلى نار وإما جنَّه

عند ذلك اهتزت أعماق عمر، وأمر غلامه أن يعطى الشاعر وقال: «أعطه قميصى لذلك اليوم لا لشعره!!»

وإذاً لا مفر من إيجاد تعاون كامل سليم بين جميع طبقات الأمة، تعاون يستل حقد المحروم ويجتلب إنسانية المقتدر ورحمته.

فأول نتيجة بديهية يجنيها المجتمع من الحرمان كثرة السرقات ، وزيادة الاختلاسات ، وملء اليد بالرشاوى ، لأن للبطن لغة لاتعرف دوى الأقلام ، ولا دقة المسئوليات ! ! ولذلك وضع الإسلام فى حسبانه قبل قطع يد السارق أن يوفر له حياة كريمة ، ومعيشة سليمة ؛ حتى إذا امتدت يده بعد ذلك يكون قد جارى حيوانيته ، وسفل مع غريزته ، فلا مانع أن يشوه بقطع يده ، نكالا من الله ، وميزة له عن أبناء المجتمع الشرفاء . . فأما إذا سرق عن حاجة ، وخطف عن مسغبة ، فللإسلام أدب آخر فيه حكمة الحكيم ، وإرشاد الرحيم . . .

لقد جاء رجل يشكو إلى عمر أن عماله يسرقون من ماله ، فلما حقق الفاروق قضيتهم وجد الرجل يظلمهم حقهم ، ويبخسهم أجرهم ، فصاح فيه قائلا : « أيها الرجل : إذا عادوا إلى السرقة قطعت يدك أنت ! ! » .

* * *

إن الظلم الإقطاعى ، والاسترقاق الطبقى ، والفوارق البعيدة المدى لايقرها الإسلام ولا يعترف بها ، ويحاربها فى غير هوادة ولا لين ! !

ولذلك كم فرح الفاهمون لدينهم يوم أن زالت الملكيات المتخمة من عندنا وألغيت التفاتيش الواسعة ، والاحتكارات المتطرفة فى بلادنا ! !

وستكون الفرحة أتم وأكمل :

يوم أن يختفى الجيش المجيّش من المتسولين . . .

ويوم أن يجد العامل كفايته وراحته فى يسر ورخاء .

ويوم أن نقضى على البطالة المنتشرة ، والكساد الكثير . .

ويوم أن نجمّد اليأس والشؤم والمزاج الأسود ونبعد ذلك عن المسلمين . .

ويوم تنتج الأرض من الغلة ما يكفينا فلا نستورد قوتاً غير عربى !!

ويوم نستقل بمصانعنا ، ويكون الحياد الإيجابى حقيقة واقعة عند العرب جميعاً .

ويوم نكون أمة ذات كيان ، قد خلت من الدخيل ، وشعر من يسكن فى الطابق الأعلى بشعور من يسكن فى الدور الأسفل ، من غير شعور بفرقة ، أو تمييز بميزة ! !

وعند ذلك نكون قد قربنا من الوضع الصحيح ، والبناء السليم !!

إن العهود القاسية التى مررنا بها جعلت الشرقى خامد الذهن ، ضعيف الشخصية ، يخاف من الحق ويخشاه ، فاقد الثقة ، كثير الشك !! الشك فى كل شىء !! وإنا لنعوذ بالله أن تلصق بالأمة العربية المسلمة هذه العوامل الهادمة ، فتكون فريسة للدعوات الطويلة اللسان ، وضحية لمبادىء الإثم والزور والبهتان ! !

وإذا كنا نحذر اليوم أن نكون ضحية المبادىء الهدامة ، فقد وقعنا من قبل فريسة التشريع الباريسى البغيض ! فكانت النتيجة أن

روح أمتنا لم ينسجم مع روح التشريع المجلوب ، والقانون المنقول !

إن الأرض غير الأرض ، وإن الشعب غير الشعب ، وإن الوجوه غير الوجوه ، وإن الطباع غير الطباع ، وإن التقاليد غير التقاليد ، وإن العادات غير العادات ، وإن الظروف الاجتماعية غير الظروف الاجتماعية ، وإن الملابسات التاريخية غير الملابسات التاريخية .

.. ثم وإن الديانة غير الديانة .. فكيف ثم كيف تنفع القوانين الغربية فى أرضنا وأمتنا ؟ ؟

إن الاستعمار أخذ ينخر فى عظامنا حتى أفقدنا ذاتيتنا ، وحلل معتقداتنا ، وفتت دساتيرنا ، وجعلنا ننظر إلى الدين كما ننظر إلى تاريخ دارس ، أو شكل معروض ، أو حقيقة علمية لا روح فيها ولا حياة ! !

ولو كان ديننا — كما صوره الاستعمار — لما غضبنا وثرنا .. ولكن ديننا حقيقة أزلية ثابتة تتجدد مع الشمس كل صباح .

إن ديننا لا يحب أن نأكل الفتات ، ولكن نصنع الطعام ونضعه على المائدة ، وندعو إليه من نشاء بكرم الشرق ، وسخاء الإسلام ، وحكمة اللبيب الحاذق ! !

إن ديننا يحب أن نقف فى مركز القيادة بحزم وعزم ، وإن كلفنا ذلك الثمن الباهظ الثقيل ! !

ونكرر فى ثقة واطمئنان : أن عندنا رصيداً يغنينا عن أى مذهب

آخر مستعار ! سواء أغرانا به الذهب الاستعمارى الإبريز ، أو حاولوا فرضه علينا بالحديد والنار ! !

هذا هو ديننا فى سفور ووضوح ! !

ولكن المدنية الاستعمارية قد غفلت بين ضجيج الآلة وظلام النفوس وثورة الأحقاد عن سلام الإسلام . ولم يروا فيه إلا دين الحرب والسطوة .. ولعمرى .. لو كانت أوربا تؤمن بالمدنية الصحيحة ، لخففت من غلواء الاستعمار ، وكفت عن جشع الأنانية البغيض !!

أما مدنيتهم التى تحبب إليهم الاحتلال العسكرى ، والاحتلال الاقتصادى والاحتلال الثقافى ، والاحتلال الاجتماعى ، فهى مدنية بينها و بين مدنية المسيح آلاف الأميال والأمتار . إن الاستعمار يجعلنا دائماً فى ذاكرته وفى حسبانه ، و ينظر إلينا بالعين القائمة .

إذا نهضنا قاوم نهضتنا ، وإذا تسلحنا أقام الدنيا وأقعدها ، و إذا وقفنا فى وسط الطريق حاول أن يجبرنا إليه بضغطه ووعيده ، و إذا رأى حركة قومية ترصّد لها الأحداث ، وتتبع لها المقاتل ، ولا يهدأ باله إلا بعد القضاء عليها وتمزيق جسد العروبة والإسلام ، وتفريق كلمتهما ، فإن فى التنازع الفشل ، و إن فى التفرقة الضعف والهوان !!

و بذلك استطاع أن يجعل من الإسلام ــ على مر الأيام ــ ديناً مهضوماً ، ومبادىء معزولة ، وحولا ضعيفاً ، وجانباً مهيناً . كما استطاع

أن يشل حركة التعليم إلى عهد قريب . فكثير من الدول العربية لا تزال محرومة من جامعة واحدة ، بينما دولة صغيرة كفنلندة فى أوربا فيها ثلاث جامعات ، وسكانها لايتجاوزون الثلاث ملايين !!

وإلى ذلك كله لايزال متوسط دخل فردنا أقل من مستوى كثير من دول العالم . . . وذلك كله بفضل الاستعمار وأيامه السود . . . فإذا أضفنا إلى ذلك بلبلة الأفكار بسبب الفراعين التى أوجدها : فرعون الإلحاد ، وفرعون الإباحية ، وفرعون الميوعة والخنوثة ، علمنا مقدار ما أصابنا من ضربات فى الصميم !!

ما أشد حاجتنا إلى عنصر بناء كعنصر « الإخاء » بين الأمم المسلمة وبين الأفراد المسلمين !!

إنى لأعتقد أن إسرائيل لم يشيدها تصريح بلفور ، ولا وعد التوراة ، بقدر ماشيدها وأقامها « إخاء » اليهود ومساندتهم بعضهم لبعض ، والعصىّ المكسورة إذا اجتمعت وتلاءم بعضها إلى بعض ، كانت أقوى من العصا الواحدة ولو كانت عديمة المثيل قوة وتماسكا !!

وخاتمة المطاف ياأخى . . لاتأت برجل أضناه الجوع ثم تكلفه أن يقاتل رجلا ممتلئا مفتولا ، ولا تشهر سكينا فى وجه مدفع ، ولا تنصب عقلا خربا من العلم أمام من بدأ فتعلم شيئا ، ولا مَن تعلم شيئا أمام من تعلم أشياء ، وليس من أعد نفسه للسباحة فى تيار المحيط ، كمن لم ير

البحر فى حياته . . . فلا تعد نفسك من أبناء الإسلام وأنت تجهله !

بل أتعب عقلك وبدنك فى تفهمه ! وزن تجاريبه وأحكامه ، ثم اعلم أن المبادىء والمذاهب كلها لو وقفت إزاءه لارتجفت وكانت قزماً بجوار عملاق .

جرب واقرأ لتر أنك بالإسلام فى قوة لاتغلب ، وحصون لاتقهر . ولن يخاف الإسلام من خرافة الغول ، وإنما هو يأكل الأغوال . وإن كثيراً من المبادىء فشا لأنه وجد نفسه فى البرية التى لم يعمرها الفكر الإسلامى وهى لم تعرف الإسلام ، أو لم تعرف منه إلا شيئاً ضئيلا ! ولو عرفته لآمنت بأن كثيراً من نظرياته كانت عند الإسلام بداءة قد بنى على قواعدها علماً وأحكاما ! !

ولا أزيدك بالإسلام معرفة
كل الفضايل فى الإسلام والحسب[1]

* * *

ونحمد الله على كل حال :

فمجتمعنا اليوم فى طريقه إلى المجد ، وفى طريقه إلى البناء ، وفى طريقه إلى التشييد والتعمير . . .

---

(١) فلسفة الزكاة .

مجتمعنا اليوم سيقضى على الفقر ، وسيقضى على البطالة ، وسيدعم الصناعة ، وسيزرع على أحدث طراز ! !

مجتمعنا اليوم قضى بالأمس على الملكيات الفاحشة ، ويسعى اليوم إلى التعاون الاشتراكى ، والمساهمات البناءة ، وتحقيق المساواة مع التكافؤ المشروع ، والسياسة الإنشائية القويمة . . .

مجتمعنا اليوم يرسم أهدافه وغاياته بوضوح . . . وابتدأ الكبير يرسم للصغير خطته ، والقوى يأخذ بالضعيف ليعطيه عزته ، والسيد يعرف لأخيه السيد حقوقه وكرامته . .

والله نسأل تمام النعمة ، وصلاح القلوب ، والوصول إلى بر السلامة من أقرب طريق .

فلسفة الإسلام

فى

المال والإنسان

الرأسمالية لاتجعل الإنسان إلا مرتعاً للشهوات ومسرحاً للملذات .

والفلسفة الماركسية لا تجعل الإنسان إلا « رقماً » من الأرقام أو « آلة » من الآلات .

أما الإسلام فلقد سلسل أشياء الكون وجعلها كلها فى قلادة ، وسلمها للإنسان ! ! .

« ألم تروا أن الله سخر لكم مافى السموات وما فى الأرض وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة و باطنة[1] » .

السحاب وما يحمل ، والأرض وما تنبت ، والبحر وما يخرج ، والشمس وما ترسل ، والكواكب وماتضىء ، والفلك وما تجرى به . كل ذلك للإنسان .

« الله الذى خلق السموات والأرض وأنزل من السماء ماء فأخرج

---

(١) سورة لقمان .

به من الثمرات رزقاً لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى فى البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار ، وآتاكم من كل ماسألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الإنسان لظلوم كفار[1] » .

وشاءت الحكمة الإلهية أن تتم أركان السعادة لبنى الإنسان ، فدلتهم على عناصر التعاون فيما بينهم ، وجعلت تسخير بعضهم لبعض شيئاً طبيعياً تجرى به الطبائع ، وتوافق عليه النفوس .

« نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون[2] » .

ولقد دلّل الإسلام الإنسان أيما دلال ، حينما أعلن أنه خليفة الله فى هذه المعمورة الشاسعة ؛ خليفة بكل مافى هذه الكلمة من معنى ، وبكل ماعليها من مسئوليات !! .

جعله خليفة يعرف قيمته ويعتز بها ، ويحرص عليها ولايفرط فيها .

« وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة[3] » .

« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض[4] » .

---

(١) سورة إبراهيم (٢) سورة الزخرف (٣) سورة البقرة
(٤) سورة الأنعام .

« فكذبوه فنجيناه ومن معه فى الفلك وجعلناهم خلائف[1] » .

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح[2] » .

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً[3] » .

« قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون[4] » .

فالإنسان سيد الكون ، وخليفة الله ، ولم يصل الإنسان إلى هذه المنزلة فى أى دين من الأديان ، ولا دعوة من الدعوات ! ! .

وهذا الاستخلاف بمعنى التمكين والتسخير ، والتسلط على مافى الكون من أشياء لا بد له من ثمن يقدمه الإنسان حتى يستحق هذه المنزلة بجدارة ، ويذوق لها لذة وطعماً ! ! .

فمن أقام الصلاة وآتى الزكاة ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر ، استحق الخلافة ، واستحق الحياة ، وكان جديراً بالثواب والنعيم . .

« ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين[5] » .

« وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى

(١ ، ٢) سورة الأعراف (٣ ، ٤) سورة الأعراف .

(٥) سورة القصص .

الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً[1] » .

فالسير على السنن القويم شرط الاستخلاف والسيادة ، وحياة العزة الشامخة ، والكرامة الكريمة . .

« وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا وكانوا بآياتنا يوقنون[2] » .

ولقد مكن الله سبحانه فعلا لمن أطاعوه فى الأرض ، فرفع من شأنهم وجمع لهم أمرهم ، وبسط لهم خيرهم ، وحجز عنهم كثيراً من الشرور والآثام .

استمع إلى القرآن يتحدث عن ذى القرنين :

« إنا مكنا له فى الأرض وآتيناه من كل شىء سبباً[3] » .

واستمع إلى القرآن يتحدث عن قوم يونس لما آمنوا :

« فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزى فى الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين[4] » .

وكل إنسان يسير على الطاعة ، ويسلك طريق الخير ، يحس بأنه موصول بقوة عليا ، لها جنود كثيرون ، ولها أمداد واسعة . « وما يعلم جنود ربك إلا هو» بل يشعر بأن قوته دونها كثير من القوى .. وذلك

---

(١) سورة النور (٢) سورة الأنبياء (٣) سورة الكهف
(٤) سورة يونس .

هو الإمداد الربانى له ، والشعور بالسيادة التى منحها الله له ، والإحساس بالتمكين الذى جعله الله من صفاته وتحت أمره .

فالإنسان خلق أداة لعمران الكون ، ومِلْئاً لفراغ الحياة ، وتجاوباً لعظمة الله ، وأثراً من آثار قدرة الله . . . تبرز فيه المواهب التى لاحصر لها إذا اتبع وازدجر ، وارعوى وانتهى ، وفقه وتعلم ، ورشد وتمسك . .

« الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر[1] » .

فأما النافرون من الْهَدْى المستقيم ، والصلة الربانية ، فقد عريت شخصياتهم من شرف الاستخلاف ، كما تجردت ذواتهم من صفات السيادة ! ! ومن وراء هذا حبوط العمل فى الدنيا والآخرة .

وإذا كان الإنسان خليفة الله ، كان له أن ينتفع بجميع مافى هذه الحياة ، وقلنا : بالمنفعة . لأن الله عز وجل إختص بملك الأصل فى المال سواء كان عقاراً أو منقولا ! ! .

وأى منطق بسيط يحكم بأن من خلق شيئاً ملكه ، والله سبحانه خالق كل شىء ، « ذٰلكم الله ربكم لاإلٰه إلا هو خالق كل شىء فاعبدوه . وهو على كل شىء وكيل[2] » .

---

(١) سورة الحج (٢) سورة الأنعام .

« ولله ملك السموات والأرض[1] » .

فالله سبحانه أشاع المنفعة لجميع عباده ، تنتقل إليهم بالأصالة أو غيرها ، بطريق مباشر أو غير مباشر ، مادامت عن حل وطريق مشروع ! ! .

و إذا أقررنا هذا المبدأ مبدأ ملكية الانتفاع ، ومبدأ « أنت وما ملكت يداك لله » وصلنا إلى نتيجة فى صالح الإنسانية ، وفى خدمة البشرية .

« المال مال الله . والإنسان خليفة عليه ، فيجب أن يتصرف بما يريد السيد المالك الأصلى ، ويجب أن يتقيد بحدود الوكالة ولا يتعداها »

« آمنوا بالله ورسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير[2] » .

« فمن شحّت نفسه بالمال هلك ، ومن طمع أكثر من حقه هلك ، ومن أمسك حقوق الناس لديه هلك » .

« ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله ، هو خيراً لهم بل هو شر لهم ، سيطوقون مابخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله بما تعملون خبير[3] » .

---

(١) سورة آل عمران (٢) سورة الحديد .
(٣) سورة آل عمران

وإذا ماذكر نص قرآنى ملكية البشر للأشياء ، فهى ملكية انتفاع لاغير . وهى نسبة مجازية فحسب ! ! .

ولقد أباح الإسلام لك بل أوجب عليك استغلال المال واستثماره كما أوجب عليك الكشف عن المناجم والمعادن ، والتنقيب والبحث ، ووهبك العقل المفكر ، والذكاء المدبر ! ! لتتصرف ونسعى ، وتكدح وتجدّ .

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فبشرهم بعذاب أليم ، يوم يحمى عليها فى نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم ، هذا ما كنزتم لأنفسكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون[1] » .

فمن شروط الوكالة ، أو الاستخلاف : أن تجمع المال وتبذله وتستثمره ، ولا يصح لك أن تدخره ، كما لا يباح لك أن تبعثره ذات اليمين وذات اليسار . . فهو عارية تنتقل منك إلى غيرك .

وفى حلالها الحساب ، وفى حرامها العقاب .

« إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً » . . « ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ، ولا تبسطها كل البسط[2] » .

---

(١) سورة التوبة (٢) سورة الإسراء .

« والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما[1] » .

فالاعتدال فى المطعم والمشرب ، لك ولذريتك ؛ هو حقك فى هذه الحياة ، والتوسط هو شأنك على هذه الأرض !

« يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد ، وكلوا واشربوا ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين[2] » .

فإذا ملكت المال فلا تعتقد أنك ملكته ملكاً أبدياً ؛ ولو كان كذلك لما فارقته . . ولكننا نلاحظ أنه ملك لأوقات محدودة ، وأنفاس معدودة . . وفى نفس الوقت ، هناك شركاء لك بنسب معلومة فى هذا المال ؛ إخوانك الفقراء ، أحباؤك المساكين ؛ شركاؤك وأولياؤك ، لهم مثل مالك من حقِّية المال ، وإن كان الاختلاف فى النسبة والتقدير . . .

« وفى أموالهم حق للسائل والمحروم[3] » .

وفى القرآن مايزيد عن الخمسين آية فى الحث على الزكاة ، وجعلها فريضة مشروعة ، وشعيرة مفروضة .

ولذلك طالبك الإسلام أن تعطى الزكاة على أنها ملك وحق للفقير . . لا هبة موهوبة ، ولا منحة ممنوحة . . ! ! .

---

(١) سورة الفرقان (٢) سورة الأعراف (٣) سورة الذاريات .

فإذا زاد المال بعد الزكاة ، و بعد حاجتك أنت . . .

فقد حدد الإسلام موقفك فى هذه الحال . . دعاك إلى الإنفاق والبذل والتضحية .

« ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولـكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائـكة والـكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب[1] » .

. « مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم . الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ثم لايتبعون ما أنفقوا منًّا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنـة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير[2] » .

و يتعمق الإسلام فى دعوتك للإنفاق والبذل ، فيخبرك أن الله سبحانه قد اشترى نفس المؤمن وأودعها خير منزلة عنده ، ووهبها أجل مكانة لديه .

(١ ، ٢) سورة البقرة .

« إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة[1] »

ويستطرد بك القرآن من إنفاق واجب إلى إنفاق مندوب ، ليعلمك أنك أمام دعوة إنسانية ، لا تجيز لك أن تشبع وغيرك جوعان ، وأن تلبس وغيرك عريان ، وأن تنام على ماشئت وغيرك لايجد إلا الأرصفة والميدان !!

« ويسألونك : ماذا ينفقون ؟؟ قل العفو[2] » .

فالعفو هنا مازاد عن حاجتك مطعما ومشربا وملبساً ومسكناً ، ولا مانع أن تدخر القليل لقسوة الزمان ، ونوائب الأيام !!

وإذا كان الإنفاق الواجب قد حددت معالمه ، فلم يحدد للإنفاق المندوب حدود ، وتركه القرآن تحت هذه الكلمة الجميلة العذبة « العفو » !! ليكون الإنفاق بالسماحة والطلاقة والبشاشة ، بعيداً عن الامتنان والحساب « ولا تمنن تستكثر[3] » .

« قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى ، والله غنى حليم . يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى[4] » .

وهل يملك المنّ من لايملك المال . . . ؟؟

وعلى قدر الفقراء والبؤساء تكون مسئولية الأغنياء . . . فجارك

---

(١) سورة التوبة .. (٢) سورة البقرة . (٣) سورة المدثر .
(٤) سورة البقرة .

وجار جارك ، وقريبك وقريب قريبك ، وكل من ربطتك به صلة الإنسانية ، أنت مسئول عنه .

« واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانا ، وبذى القربى واليتامى والمساكين ، والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لايحب من كان مختالا فخورا[1] » .

وبذلك لن نجد تكافلا اجتماعياً ، وترابطاً ودياً ، واعترافا بحقوق المواساة ، وعطفاً وإيثاراً أكثر من الإسلام . . .

إن الإسلام ينظر إلى المسلم على أنه إنسان ممتاز ، هو سيد ، وهو خليفة ، وهو المعمر لهذه الأرض ، وهو المدبر لما فيها من أشياء . . . ولكن لايصح أن يحتكر ولا يستغل ولا يخدع ولا يغش ولا يجمع ماليس له . .

إن الإسلام يحرم استغلال النفوذ والرشوة ، والهدايا المصحوبة بالأغراض :

« ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم[2] » .

فهل نجد إنسانية مثل إنسانية الإسلام .

---

(١) سورة النساء . (٢) سورة البقرة .

وهل نجد علاجا للنفوس مثل علاج الإسلام .

وهل نجد قضــاء على الفقر ومحاربة له مثلما نجد فى التشريع الإسلامى .

وهل نجد مواساة وتكافلاً اجتماعياً مثلما تجد فى الإسلام .

وهل نجد إنساناً نالَ شرفاً واحتل مكانة أكثر مما نال واستحق فى الإسلام ؟؟؟

اللهم لا : اللهم لا !!

خاتمة

أخى العربى فى الجمهورية العربية المتحدة ، وفى جميع أرض العروبة :

هذا هو المنهاج الاشتراكى السليم ، كما أراده دينك العظيم .

فلا إقطاع ولا إعنات ؛ ولا عسر ولا إرهاق .

وإذا كان الشعب العربى فى الجمهورية العربية المتحدة ، يتمتع اليوم بزوال الإقطاع إلى غير رجعة ، ويسير خطوات سريعة إلى النهضة العمرانية الشاملة ؛ فإن زوال الإقطاع والتقارب بين الطبقات سيعم إن اليوم وإن غدا ، جميع الشعوب العربية فى أوطان العروبة .

إن العهد عهد الشعوب لا عهد الإقطاع ؛ وإن الوعى قد دخل كل عقل ، وسيطر على كل شعور . وإن الأمة العربية المتحررة قد نذرت دمها ونفسها وما تملك يداها ؛ لإحياء حقوقها ، والمحافظة على كيانها وسيادتها . ولن يرضخ أى شعب عربى بعد اليوم لميزانيات « القصور الملكية » وعربدة « الأمراء » وتخمة « الشعراء والمداحين » .

إننا شعب متديّن بطبعه ، ثائر بوضعه ، قوى فى عزيمته . وإذا وصف الشعب العربى بأنه بسيط ؛ فليس معنى بساطته أن يُغَرّر به .

وإذا وصف بأنه طيب ، فليس معنى « الطيابة » أن يأكل طيباته « أعوان الاستعمار » ويترك الشعب عائشاً على قشر البطيخ .

أخى العربى فى الجزيرة العربية كلها ، أخى العربى فى مصر وسورية ، أخى العربى فى الأردن والعراق ولبنان ، أخى العربى فى الجزائر ومراكش وتونس ، أخى العربى فى اليمن والبحرين وعدن والكويت !! أخى المسلم فى كل مكان ! .

لقد آن لنا أن نتجاوب مع ديننا الحنيف ، فنحارب الإقطاع بكل صوره ، ونحارب الرأسمالية بشتى ألوانها ، ونحارب الشيوعية بكافة طرقها . . .

آن لنا أن نعرف ديننا الواضح العظيم ، من غير غبار ولا قشور . نعرف الجوهر ، ونغوص فى الأعماق ، ونتناجى مع عباراته الطاهرة .

آن لنا أن نتصافح على بساطه ، ونتلاقى على أضوائه . .

آن لنا أن نفتح أعيننا للاستعمار ودسائسه ومكائده ؛ فإنه يريد القضاء على ديننا ، وحريتنا ، وأوطاننا . .

ثم آن لنا :

أن نفتح الأذرع والقلوب ، لنضم فى حنان ورفق ، وعزم وقوة ، وليدنا الجديد السعيد « الجمهورية العربية المتحدة » .

ولعلك تتساءل : ما علاقة هذا المولود بكتابنا « المنهاج الاشتراكى »؟

فاعلم ياسيدى أن التفاعل القوى الحى الذى جعلنى أخرج لك هذه الصفحات البسيطة الثائرة ، هو نفس التفاعل القوى الحى الذى جعل الشعبين العربيين فى مصر وسوريا يعملان على الوحدة ، ويكتلان كل الجهود لإكمالها . . . وهو نفس التفاعل القوى الحى الذى سيجعل بقية الشعوب العربية تسلط الأنوار الحمراء المحرقة على كل من يقف عقبة فى سبيل هذه الوحدة ، سواء كان من سكان القصور ، أو كان من أرباب الإقطاع والضياع والمتاع . . . وكان تفاعلنا قوياً حياً ، لأنه نابع من ضميرنا ، من ديننا ، من عروبتنا ، من بيئتنا ، من ظروفنا . . . من كل مايتصل بنا . . .

ولا أحب أن أختم الكتاب قبل أن أقدم إليك نصوصاً قوية لعلماء أجلاء يشهد العالم الإسلامى بفضلهم . . . وهذه النصوص على اتصال مباشر بموضوعنا ؛ قدمتها لتكون مسك الختام كما يقال .

قال ابن حزم فى كتاب المحلى :

« وفرض على الأغنياء من أهل كل بلد أن يقوموا بفقرائهم ، ويجبرهم السلطان على ذلك إن لم تقم الزكوات بهم ، فيقام لهم بما يأكلون من القوت الذى لابد منه ، ومن اللباس للشتاء والصيف بمثل ذلك ، وبمسكن يكنهم من المطر والصيف ، وعيون المارة [1] » .

---

(١) جـ ٦ .

ولابن حزم رأى خطير فى الأرض ، فيقول :

« ولا يجوز فى الأرض إلا المزارعة بجزء مسمى مما يخرج منها أو المغارسة كذلك فقط ، فإن كان فيها بناء قل أو كثر ، جاز استئجار ذلك البناء وتكون الأرض تبعاً لذلك البناء غير داخلة فى الإجارة أصلا ، ولا يحل فى زرع الأرض إلا أحد ثلاثة أوجه :

(١) إما أن يزرعها المرء بآلته وأعوانه ، و بذره وحيوانه .

(٢) و إما أن يبيح لغيره زرعها ولا يأخذ منها شيئاً .

(٣) و إما أن يعطى أرضه لمن يزرعها ببذره وأعوانه وحيوانه وآلته بجزء ، ويكون لصاحب الأرض مما يخرج مسمى : إما النصف ، و إما الثلث مثلا ، و يكون الباقى للزارع[1] » .

وقال الشاطبى فى كتابه « الموافقات » :

« إن أحكام الشريعة ماشرعت إلا لصالح الناس ، وحيثما وجدت المصلحة ، فثم شرع الله » .

* * *

والحمد لله الذى بنعمته تتم الصالحات

---

(١) المحلى جـ ٨ .

المراجع

القرآن الكريم

الكتب الصحاح فى السنة والحديث

الإنجيل

الإسلام فى القرن العشرين ـ للأستاذ العقاد

الشيوعية والإنسانية ـ « «

عبقرية عمر ـ « «

عمر بن الخطاب ـ للأستاذ على الطنطاوى

أبو بكر الصديق ـ « « «

تهذيب تاريخ ابن عساكر

الخراج ـ لأبى يوسف

حلية الأولياء ـ لأبى نعيم

طبقات ابن سعد

الرياض النضرة فى مناقب العشرة ـ للمحب الطبرى

ديوان شوقى جـ ١ .

المال والحكم فى الإسلام ـ للمرحوم عبد القادر عوده

الملكية فى الإسلام ـ لأبى النصر الحسينى
حقوق الإنسان ـ للدكتور على عبد الواحد وافى
عيون الأخبار ـ لابن قتيبة
سراج الملوك ـ للطرطوشى
شرح نهج البلاغة ـ لابن أبى الحديد
الأموال ـ لأبى عبيد
الخراج ـ لابن آدم
الأحكام السلطانية ـ للماوردى
الإسلام والأوضاع الاقتصادية ـ للأستاذ الغزالى
من هنا نعلم » »
الاستعمار أحقاد وأطماع » »
التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام »
الإسلام والمناهج الاشتراكية ـ للأستاذ »
الإسلام المفترى عليه » »
جدد حياتك » »
عقيدة المسلم » »
الإسلام والاستبداد السياسى » »
الدستور السوفيتى ـ للأستاذ فؤاد محمد شبل
يوم الإسلام ـ للدكتور أحمد أمين

فيض الخاطر ج ١ للدكتور أحمد أمين
الإسلام لا شيوعية ولا رأسمالية ــ للأستاذ البهى الخولى
تذكرة الدعاة « « «
عمر بن عبد العزيز ــ للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل
اشتراكية الإسلام ــ للأستاذ أحمد محمد رضوان
الاشتراكية فى الإسلام ــ للسيد جمال الدين الأفغانى
الاشتراكية والدين ــ للسيد محمد رشيد رضا
المبادىء الاشتراكية فى الإسلام ــ للأمير شكيب أرسلان
محمد المثل الكامل ــ للأستاذ محمد أحمد جاد المولى
أبو ذر الغفارى ــ للأستاذ عبد الحميد جوده السحار
ديوان حافظ إبراهيم
الإسلام دين خالد ــ للأستاذ محمد فريد وجدى
المذاهب الاجتماعية الحديثة ــ للأستاذ محمد عبد الله عنان
تاريخ الجمعيات السرية « « « «
الشيوعية على حقيقتها ــ للأستاذ عمر الاسكندرى
التكافل الاجتماعى فى الإسلام ــ للأستاذ حافظ عبد المقصود مصطفى
وحى القلم ج ١ للمرحوم مصطفى صادق الرافعى
هذا هو الإسلام ــ للأستاذ العماوى
مستقبل الإسلام ــ « «

في ظلال الإســلام ـ للأساتذة : محمود النواوى وفرج العقدة وعبد المنعم خفاجى

القضايا الـكبرى ـ للأستاذ عبد المتعال الصعيدى

تاريخ التشريع الإسلامى ـ للأستاذ محمد الخضرى

السياسة الشرعية ـ للأستاذ عبد الوهاب خلاف

مع المفسرين والـكتاب ـ للأستاذ أحمد محمد جمال .

فلسفة الزكاة عند المسلمين ـ للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل

فى هذا الكتاب

الثمن ١٥ ص